بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿٢﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤﴾

التفسير: لقد قلنا من قبل لدى تفسير سورة البقرة أن ﴿الم﴾ هي من الحروف المقطعة، حيث إن الألف اختزال لـــ "أنا"، واللام لـــ "الله" والميم لِـــ "أعلم"، والمعنى "أنا الله أعلم". وقد بيّنّا من قبل أيضًا أن حروف المقطعات تومئ في الواقع إلى مضمون السورة التي تستهل بها، حيث قال الله تعالى بعد ﴿الم﴾ في هذه السورة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾. وتبدو هذه الآية متعارضة مع مفهوم ﴿الم﴾ حيث يقول الله فيها إن الإيمان باللسان وحده لا يكفي ولذا لا بد أن نلقي المؤمنين في صنوف الاختبار لنعلم حقيقة إيمانهم؛ وكأن الله تعالى بحاجة لاختبار الناس حتى يعلم حقيقة إيمانهم بشكل صحيح. ولكن التدبر يكشف لنا أنه ليس ثمة تعارض في الواقع، ذلك لأنه برغم أن الله تعالى أعلم من الجميع، إلا أنه لا يوقن بهذه الحقيقة الكافر ولا المؤمن الضعيف. وسبب ذلك هو أن الله تعالى وراء الوراء وأن علمه أيضًا وراء الوراء، فلا يوقن الناس بكونه تعالى هو الأعلم إلا إذا كانت هناك آثار ظاهرة دالة على ذلك. وهذا ما تؤكده هذه الآية حيث أخبر الله تعالى أننا نعلم كل شيء بلا ريب، ولكن نريد أن يعلم الناس أيضًا من يؤمن ومن لا يؤمن في الواقع؛ لذلك لا نرضى بادعاء المرء بالإيمان بلسانه بل نختبره مرة بعد أخرى حتى يعلم الجميع أن هؤلاء المؤمنين الذين اختارهم الله تعالى هم مؤمنون حقًّا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾. أي لم نبدأ اختبار إيمان الناس اليوم، بل ما زلنا نلقيهم منذ قديم الزمان في شتى الابتلاءات، لأننا نريد أن نكشف حقيقة إيمانهم للآخرين.

واعلم أن الله تعالى قد قال هنا: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾، ومعناه الحرفي أن الله تعالى سيعلم المؤمن من المنافق من خلال اختبار الناس. وهنا ينشأ السؤال: إن علم الله أزلي ويعلم كل حدثٍ سواء ما وقع في زمن آدم أو سيقع إلى يوم القيامة، فكيف قيل هنا إن الله تعالى سيعلم مَن المؤمن ومن المنافق من خلال اختبار الناس؟

فالجواب أن علم الله نوعان: علمه بالحادث قبل وقوعه، وعلمه به بعد وقوعه. ولا شك أنه يعلم الحادث قبل وقوعه، ولكن لو عوقب المجرم أو كوفئ المحسن بناء على هذا العلم الإلهي فلن يطمئن أي منهما بهذا العقاب أو الجزاء بل سيظل يشك في ذلك. أما بعد وقوع الشيء فلا يسع أحدًا إنكاره، ولا يجد بدًا من الإقرار بصحة عقابه وجزائه. فالمراد من قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أنه سيبدّل علمه الأزلي في العلم الواقعي.. أي سيمرّر المؤمنين بظروف تكشف عليهم وعلى زملائهم أنهم صادقون في الإيمان، ولن يدع الكافرين ليقولوا أن هؤلاء قد نالوا ذلك الجزاء بدون جدارة. إذًا، فقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾ يعني في الحقيقة: لَيكشفنَّ.. أي يبدل الله علمه الأزلي إلى العلم الواقعي بكشف صدق المؤمنين الصادقين حيث يظلون ثابتين في الاختبار؛ ذلك لأن الله تعالى يعلم بعلمه الأزلي أن هذا واقع لا محالة، ولكن عباده لا يعلمون ذلك إلا عند وقوعه. فمثلاً إن الله يعلم منذ الأزل أن زيدًا سيموت في شهر كذا ويوم كذا، ولكن الناس لا يعلمون ذلك، كما لا يطمئنون به بناءً على علم الله الأزلي الخفي فقط؛ ولكنه تعالى عندما يكشف علمه الأزلي في شكل الواقع ويموت زيد في الموعد المحدد يوقن الناس أنه قد مات فعلاً. وهذا ما أكده الله تعالى هنا بقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ﴾، فبيّن أنه يعلم منذ الأزل مَن المؤمن ومَن المنافق، ولكن الناس لا يعلمون ذلك، ويظلون في شك إلى أن يتحول ما هو في علم الله الأزلي إلى الأمر الواقع. فيلقي الله تعالى المؤمنين في أنواع الاختبار، فالذين يتثبتون على إيمانهم يوقن الناس بأنهم مؤمنون صادقون، أما الذين تزلّ قدمهم أثناء الاختبار فيتحول ما هو في علم الله الأزلي

بأنهم كاذبون في دعوى الإيمان إلى الأمر الواقع، فيوقن الناس بضعف إيمانهم؛ فلا يبقى هناك مجال للاعتراض على معاملة الله مع العباد.

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات قاعدة كلية وهي أن دعوى الإيمان والاختبار أمران متلازمان، إذ من المستحيل أن يُعَدّ المؤمنون كاملين في إيمانهم بادعائهم به بدون أن يُلقَوا في بوتقة الاختبار والمحن. لم يحدث هذا قط ولن يحدث أبدًا. إن الذين آمنوا بالدين الحق في أي زمن لم تُفتَح عليهم أبواب الراحة واليسر فورًا، بل حُرموا مما في أيديهم في أول الأمر؛ فإذا كانت لهم بيوت طينية لم يحصلوا على القصور الفخمة نتيجة الإيمان، بل حُرموا من بيوتهم الطينية أيضًا؛ وإذا كانوا معززين في قومهم فلم يزدادوا عزًا ولم يصبحوا حكامًا وملوكًا بسبب قبول الدين الحق، بل تخلَّوا عن عزتهم أيضًا؛ وإذا كانوا من أهل الثراء فلم يزدادوا ثراءً نتيجة الإيمان، بل حرموا من أموالهم؛ وإذا كانوا يتمتعون بالنفوذ والعلاقات، فلم يزدادوا نفوذًا نتيجة قبول الدين الحق، بل انقطعت علاقاتهم السابقة أيضًا. وباختصار فقدوا نتيجة الإيمان ما كانوا يتمتعون به من راحة ويسر وعز ومال وقوة ونفوذ، وتعرضوا للأذى والتعذيب حتى تركوا أوطانهم لوجه الله تعالى بدلاً من أن ينالوا راحة فور إيمانهم. كان إبراهيم عليه السلام يسكن العراق، ولكنه اضطر لترك وطنه إلى فلسطين نتيجة المعارضة. ولما بعث نوح عليه السلام اضطُر لترك وطنه أيضًا. ولما جاء موسى عليه السلام اضطُر لمغادرة دياره. وعندما جاء عيسى عليه السلام علقوه على الصليب وبعد أن نجا من الموت على الصليب هاجر إلى كشمير بحسب عقيدتنا، وصعد إلى السماء بحسب غيرنا من المسلمين. ثم تعرضت جماعته للاضطهاد الشديد، فهاجروا إلى جزيرة قبرص، ولما اضطُهدوا هناك ذهبوا إلى روما، ثم هربوا من هناك إلى مصر، ولما صُب عليهم الظلم في مصر عادوا إلى روما مرة أخرى، ثم تعرضوا للمظالم في روما فغادروها إلى صقلية؛ وهكذا ظلت جماعته تغير مركزها من مكان إلى مكان طيلة ثلاثة قرون. كذلك تعرَّض بنو إسرائيل عند هجوم "نبوخذنصّر" البابلي لدمار شديد، فخُرّبت جميع أماكنهم المقدسة، وهُدم معبدهم، ودُمرت مدنهم وأُحرقت، وأصبحت فلسطين والشام خرابًا، وأُسر القوم كلهم وأُخذوا عبيدًا ولم يبق أحد

منهم حرًّا، وتمّ جلاؤهم من بلادهم. كم كان هذا الابتلاء شديدًا، ومع ذلك ظل هؤلاء مجتهدين مثابرين؛ وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحادث أيضًا (سورة البقرة:٢٦٠) حيث بيّن أن نبيًا منهم مر على قرية وهي خاوية على عروشها فقال أنّى يحيي الله هذه بعد موتها، فكشف الله تعالى في رؤيا كشف أحداث مئة السنة القادمة وأخبره أنه تعالى سيُعيد عمرانها بعد مئة سنة. ثم قال الله تعالى له: انظُرْ إلى حمارك الذي لا يزال حيًا وطعامك الذي لم يفسد، وذلك لكي لا يظن أنه ظل نائمًا مئة سنة فعلاً ويدرك أن ما رآه هو مجرد مشهد من مشاهد الكشف. ثم بعد مئة سنة تمامًا وقع ما أخبره الله تعالى به في الرؤيا حيث شنَّ ملكُ فارس وميديا – واسمه "قورش Siros" – الهجومَ على بابل. وحيث كان صعبًا عليه الوصول إلى القلاع الموجودة داخل المملكة البابلية بعث إلى اليهود أن يساعدوه من الداخل. فسمح لهم أنبياؤهم بمساعدة الملك الفارسي، وقد ذكر الله تعالى هذا الحادث أيضًا في القرآن الكريم حيث بين أن اليهود أسسوا في ذلك الزمن منظمات سرية بإذن أنبيائهم لم يكن أعضاؤها إلا الذكور (انظر سورة البقرة: ١٠٣). فلما شن الملك الفارسي الهجوم على بابل ثار اليهود من الداخل، فانتصر الملك الفارسي بمساعدتهم. فسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم وإعادة بناء معابدهم وأماكنهم المقدسة، بل أعلن مساعدتهم بالمال من الخزينة الحكومية لبناء معابدهم (The Historian History of the world مجلد ٢ ص ١٢٦). وهذا هو نفس الحادث الذي يتحدث عنه الجزء الثاني من الآية القرآنية: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾(البقرة:١٠٣). بينما بيّن الله تعالى في الجزء الأول منها أن اليهود يقومون الآن بأعمال سرية ضد محمد ﷺ، ظنًّا منهم أنهم سينجحون في القضاء على محمد ﷺ بالتآمر مع كسرى إيران كما قضوا على مملكة نينوى البابلية من قبل بالتآمر مع الملك الفارسي. لقد شكلوا المنظمات السرية مرتين، مرة في عهد سليمان عليه السلام، ومرة أخرى في زمن النبيين حجّي أو زكريا. وقد أوضح الله لهم أنهم قد أقاموا المنظمات السرية أول مرة ضد أحد أنبياء الله تعالى، أما في المرة الثانية فأقاموها بمساعدة اثنين من أنبيائهم وهما هاروت وماروت – علمًا أن هاروت وماروت صفتان للنبيين اللذين أمرهما الله

تعالى في زمن السبي بأن يأخذوا بني إسرائيل إلى أرضهم. ولفظ هاروت مشتق من هرَت ومعناه شَقَّ، ولفظ ماروت مشتق من مرَت ومعناه مزَّق وكسَر (تاج العروس)، وقد سُمّيا بهذين الاسمين لأن الله تعالى قد عهد إليهما شقّ الحكومة البابلية وتمزيق القوى الطاغوتية – فالله تعالى قد حذر اليهود بهذين المثالين أنهم عندما قاموا لمحاربة نبي هُزموا، وعندما ثاروا بمساعدة بعض أنبيائهم نجحوا في خططهم السرية، فليفكروا الآن ما إذا كان نبي الله ضدهم أو معهم في هذه المرة؟ فإذا كان نبي الله ضدهم فليعلموا أن دسائسهم تشبه دسائسهم التي قاموا بها ضد سليمان عليه السلام، وإذا كان نبي الله معهم فلا جرم أن أعمالهم تشبه ما فعلوه في زمن هاروت وماروت حين حمل قورش على المملكة البابلية. وبما أنهم يحاربون نبي الله هذه المرة فليعلموا أنهم سيلقون نفس المصير الذي لقوه في عهد سليمان عليه السلام. وهذا ما حدث بالضبط، حيث دُمر اليهود بسبب عدائهم للنبي ﷺ تدميرًا.

باختصار قد حل ببني إسرائيل في ذلك الوقت دمار شديد حتى قال أنبياؤهم كيف يحيي الله أُمّتهم ثانية كما ورد عن النبي حزقيال. فأخبره الله تعالى أنه سيُحييها ثانية بعد مئة سنة.

إذًا، إن جماعات الأنبياء تمر بظروف صعبة جدًّا مما يدل على صدق إيمانها وجودة معدنها. فقد مر صحابة الرسول ﷺ أيضًا بالمحن الشديدة جدًا سنوات عديدة. فذات مرة بعث النبي ﷺ عشرة من أصحابه إلى بعض القبائل، ولكن أهلها غدروا وهجموا على الصحابة، فلاذوا بجبل وصعدوا عليه، ولما رأى الكافرون أن هؤلاء سيحاربونهم حتى الموت حلفوا لهم بالله أنهم لن يتعرضوا لهم بأذى إذا نـــزلوا. ولكن أمير وفد المسلمين قال لأصحابه إني لا أثق بهؤلاء الكذابين المخادعين ولا اعتبار لأيمانهم، فلم يزل يقاتلهم حتى استُشهد، أما باقي المسلمين فنـــزلوا من الجبل منخدعين بأيمانهم ووعودهم وما إن نـــزلوا حتى أوثقوهم بالحبال وأخذوا يجرونهم، فحاولوا مقاومتهم ولكن بدون جدوى. فقتلهم الكافرون إلا اثنين منهم حيث باعوهما في مكة إلى بعض القوم الذين قُتل أقاربهم في حرب بأيدي المسلمين. ولما أراد أهل مكة قتل أحد منهما قالوا له: ألا تحب أن يكون محمد مكانك وتكون

جالسًا مطمئنًا بين أهلك وأولادك؟ فقال لهم: "والله ما أحبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وإني جالسٌ في أهلي." (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، والسيرة النبوية لابن هشام: ذكر يوم الرجيع في سنة ثلاث)

وإحدى المرات جاء رئيس قبيلة إلى النبي ﷺ وقال إن قومي يريدون اعتناق الإسلام، فابعث معي بعضًا من أصحابك لتعليمهم. وكان الرئيس صادقًا في قوله وقد آمن فيما بعد، ولكن قومه غدروا بالمسلمين. لقد بعث النبي ﷺ إليهم سبعين من حفظة القرآن الكريم بينهم عبدٌ لأبي بكر كان رافَق النبي ﷺ في الهجرة. فلما أتوا ديار القبيلة أبلغوا ابنَ أخي رئيسها بمجيئهم. فدعا أمير الوفد المسلم وأخذ يحدثه، ثم أومأ إلى شخص، فطعن الصحابيَّ في عنقه بالرمح فسقط في مكانه وهو يهتف كما ورد في التاريخ: "فُزتُ وربِّ الكعبة". ثم حملوا على باقي الصحابة حملةَ رجل واحد، وكان طبيعيًا أن يُستشهد الجميع حيث حمل عليهم آلاف الناس. ولكن لم يستسلم أحد من الصحابة السلاح، بل ظل يسقط الواحد تلو الآخر صريعًا، وكلما أصيب أحد منهم بطعنة خنجر أو ضربة سيف رفَع الهتاف نفسه: "فُزتُ وربِّ الكعبة". ويقول رجل من تلك القبيلة أنه كان لا يعرف عن الإسلام شيئًا، وكان في سفر، فلما رجع وجد قومه في قتال مع هؤلاء المسلمين، فانضم إلى صفوف قومه. ويضيف هذا قائلاً: والشيء الغريب الذي لاحظت في المسلمين أن كل واحد منهم كان يموت وهو يهتف: "فُزتُ وربِّ الكعبة" بدلاً من الصراخ والعويل! فكنت أقول في نفسي: متى كان الموت فوزًا حتى يهتف هؤلاء: "فُزتُ وربِّ الكعبة"؟ فسألت البعض عن ذلك، فقال: إنك لا تعرف المسلمين، إنهم مجانين إذ يرون أن من يقتل في سبيل الله تعالى يفوز فوزًا عظيمًا. وكان في قلب الرجل خير، فقال في نفسه لا بد أن هناك سببًا وراء هذا القول، فبدأ يبحث في الإسلام حتى آمن بالنبي ﷺ. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع)

وباختصار، قُتل هؤلاء الحفاظ كلهم الواحد تلو الآخر ورأوا فوزهم كله في الموت. الأمر الذي جعلهم غالبين على العالم في فترة وجيزة جدًا بحيث لم يسبق لهم مثيل في الشعوب كلها.

ثم تلاحظ أن هذه المحن والمصائب لم تنته بسرعة، بل استمرت مدة طويلة. فعندما قامت الخلافة استُشهد عمر ثم عثمان ثم علي – رضوان الله عليهم أجمعين. بينما استُشهدت عائلة النبي ﷺ كلها تقريبًا في ميدان كربلاء. فمن الخطأ الظن أن الاختبارات تكون في البداية فقط وتنتهي في زمن الغلبة والرقي. الواقع أن ازدهار جماعات الأنبياء وظاهرة الابتلاء أمران متلازمان لا ينفصلان. فتقع المحن في الفترة الأولى كما تقع عندما تكون الغلبة في ذروتها، وهكذا تستمر سلسلة الاختبار من البداية إلى النهاية. تحل المحن عندما يكون النبي فردًا واحدًا لم يؤمن به إلا شخص أو شخصان، كما تأتي المحن عندما تبلغ جماعته ذروة رقيها وازدهارها. لقد مر النبي ﷺ بالمحن والمصاعب في أول يوم من دعوته وقد تعرض هو والمؤمنون لأنواع الاختبار، ثم لما جاء زمن الغلبة والرقي لم تنقطع هذه المحن والبلايا بل استمرت. لم ينم النبي ﷺ في يوم من أيام حياته مطمئنًا بأنه قد تجاوز العقبات كلها، وأن جميع المشاكل التي تتعلق برقي المسلمين قد زالت. كما لم يخطر هذا ببال أبي بكر ولا عمر ولا عثمان قط، ويجب ألا تخطر هذه الفكرة ببال جماعتنا أبدًا. إن الاختبارات منوطة بالجماعات الإلهية، ولا يمكن أن تزدهر أي جماعة روحانية بدونها. لقد بين الله تعالى نوعية هذه التضحيات في آية أخرى فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة:١٥٦). ويعني قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾: أيها الرسول بشِّر الذين لا يحيدون عن طريقهم عند الاختبار ويضحون في سبيل دينهم بشجاعة بأن الله تعالى يعِدهم النجاح في هدفهم.

باختصار، من المحال أن يحيا قوم ما لم يقبلوا الموت، لأن الحياة لا تُنال بدون الموت. فكما أن النبات لا يخرج من البذرة ما لم تُدفن في التراب، ولا يولد المولود ما لم يمكث في ظلمات رحم أمه، كذلك لا يمكن أن يزدهر قوم ما لم يَقبلوا الموت. لقد استُشهد بعض أفراد جماعتنا في كابول، واضطر بعضهم لترك أوطانهم، وكل واحد منهم تعرض لنوع من العذاب وأقلّه تخويف الناس إياهم بفتاوى التكفير، ولكنهم لم يُخفوا الحق.

إذًا، فمن سُنّة الله المستمرة أن يلقي عباده في نيران الاختبار أولاً، ثم يشرّفهم بقربه. إن الجبناء والمنافقين هم الذين يخافون عند حلول الخطوب، إذ صرح القرآن الكريم في بداية سورة البقرة أن من علامات المنافقين أنهم إذا ما رأوا مصيبة قاموا، وإذا زالت مشوا، أما المؤمن فيزداد إيمانًا وقوة عند الشدائد (البقرة:٢١). يخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن المسلمين عندما قيل لهم عند غزوة الأحزاب إن الناس قد اجتمعوا لحربكم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ (الأحزاب:٢٣).. أي هذا هو الجيش الذي وعد الله ورسوله به، فكيف يمكن أن يتزعزع إيماننا، فازدادوا إيمانًا على إيمانهم. فعلى المؤمنين أن يدركوا عند حلول الخطوب أن الله تعالى يريد أن يرفع بها مكانتهم. كل نفس ذائقة الموت، ويقول الله تعالى لنا: هناك موت طبيعي، وموت آخر في سبيل الله يهب الخلود لصاحبه، فلا تقولوا لمن يقتل في سبيله أنهم أموات بل إنهم أحياء عند ربهم يُرزَقون.. أي أن الله تعالى يرفع درجاتهم باستمرار. لا شك أن العدو يريد أن يحزن المؤمنين ويمحو أثرهم، ولكنه يصاب بخيبة الأمل حين يرى أنهم كلما ضُربوا ازدادوا إيمانًا وشجاعة وقالوا إنما يريد الله بهذا غلبتنا وازدهارنا.

ذهب المسيح الموعود عليه السلام إلى سيالكوت مرة، فأصدر المشائخ فتوى ضده بأن من يذهب لزيارته أو يسمع خطابه يفسخ زواجه، لأنه كافر دجال، وسماع كلامه وقراءة كتبه حرام، وقتله ثواب. ولأن المسلمين الأحمديين من سيالكوت وما حولها من القرى كانوا قد اجتمعوا فلم يجرؤ المشايخ على إثارة الفتنة ضده أثناء مكوثه عليه السلام هناك، بل قرروا إحداث الفساد بعد مغادرته. وكنت عندها في رفقته عليه السلام، فلما ركب حضرته القطار رأيت أن الناس حاملين بأيديهم حجارة على مدى البصر، وعندما تحرك القطار حاولوا رشق المسيح الموعود عليه السلام وأنى لهم ذلك والقطار متحرك. فكلما حاولوا رَشْقَنا بالحجارة أصيب أحد من غيرنا، ففشلت مكيدتهم. ولما ذهب المسيح الموعود عليه السلام بالقطار تفرق الإخوة الأحمديون الذين جاؤوا من القرى المجاورة، ولم يبق في المحطة إلا قليل من الأحمديين المحليين وبعض الضيوف من الجماعات الأخرى؛ فهجم عليهم المعارضون، وكان من بين هؤلاء

الأحمديين المولوي برهان الدين، فرشقه المعارضون وضربوه ثم ألقوه في محل وأتوا بالروث ليدخلوه في فمه. ويقول شهود عيان إنهم لما حاولوا فتح فمه لم يصرخ و لم يشتمهم، بل قال بكل اطمئنان وبشاشة: "سبحان الله! إن هذا اليوم المبارك لا يراه إلا ذو حظ عظيم. إن هذا اليوم المبارك لا يراه أحد إلا عند بعثة نبي من عند الله تعالى. والحمد لله الذي أراني هذا اليوم المبارك". فتركوه خجلين نادمين.

فالحق أن العدو عندما يجد خصمه يخاف الموت يتشجع أكثر ويقول بعضهم لبعض: هلمّ نخوفه، كما يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾. إذًا، فإذا خاف أحد الموت قال هؤلاء إنه من أولياء الشيطان هلمّ نخوّفه، ولكنه إذا لم يخف هجومهم وأذاهم بل قال لقد منّ الله علي إذ منحني هذا الشرف العظيم حيث أُضرب في سبيله، فإن الأعداء يهابونه، ويندمون في قلوبهم ويخجلون.

لقد أوضح الله تعالى للمسيح الموعود عليه السلام مرة بعد أخرى أنه لا بد لجماعته من التضحيات كما قدمتها جماعة الأنبياء في الماضي. وقد قال حضرته عليه السلام إني رأيت مرة في الرؤيا أني دخلت في بيت "نظام الدين". والمراد من هذه الرؤيا أن جماعته ستصبح نظامًا للدين في نهاية المطاف، وتكون غالبة على نُظم العالم كلها. أما وكيف ستتم هذه الغلبة؟ فقد بين حضرته عليه السلام في هذه الرؤيا: سندخل في هذا البيت على طريقة الحسن طورًا وعلى طريقة الحسين طورًا آخر (تذكرة: الطبعة الثالثة ص ٧٩٢). والمعروف أن النجاح الذي حققه الحسن إنما حققه بالصلح، والنجاح الذي حققه الحسين إنما حققه بالشهادة في سبيل الله. إذًا، قد أخبر الله المسيح الموعود عليه السلام أن جماعته ستصل مقام نظام الدين، ولكن بشيء من الصلح والمحبة وبشيء من الشهادات والتضحيات. وإذا كان بعضنا يظن أن جماعتنا ستزدهر بغير الصلح والمحبة والوئام فهو مخطئ، وإذا كان بعضنا يظن أن جماعتنا ستزدهر بدون التضحيات والشهادات فهو مخطئ أيضًا. لا بد لنا من اتباع طريق الصلح والسلام تارة، وتارة أخرى لا بد لنا من اتباع طريق الحسين.. أي لا بد لنا من أن نتصدى للعدو ونموت في سبيل الحق ولا نرضى بقوله. فكلا الطريقين مقدر لنا، ومن المحال

أن نتبع طريق المسيحية وحدها أو طريق المهدوية وحدها، بل لا مناص لنا من اتباع طريق وسط بينهما. ستتم لنا غلبة بالصلح والمحبة والوئام، وستتم لنا غلبة أخرى بتقديم التضحيات، وعندها تدخل جماعتنا في بيت نظام الدين ويكون النجاح حليفنا.

وهذه هي الرسالة التي أعطانا المسيح الموعود عليه السلام في كتابه "أنوار الإسلام"، حيث قال ما تعريبه:

"بعزّة الله تعالى وجلاله أنه ليس شيء في الدنيا ولا الآخرة أحبَّ إلي مِن أن تتجلى عظمة دينه ويلمع جلاله ويعلو اسمه. إني بفضله تعالى لا أخاف الابتلاء ولو حل بي ملايين المرات. لقد أُعطيتُ قوةً لشقّ براري الابتلاء وفلوات الآلام. لستُ ذلك الذي تراه يولي دبره يوم القتال، بل أنا ذلك الذي ترى رأسه مضرجًا بالدماء.

فإذا كان منكم مَن لا يريد السير معي فلينفصل عني. إني لا أدري كم سأقطع من الغابات المخيفة والبراري الشائكة، فلِمَ يُرهق ذوو الأقدام الناعمة أنفسهم معي عبثًا؟ إن الذين هم مني فلن يخذلوني أبدًا بسبب المصائب وسباب الناس والمحن والبلايا السماوية. أما الذين ليسوا مني فهم يدّعون بصداقتي عبثًا، لأنهم سيُفصَلون عني عن قريب، وسيكون مآلهم أسوأَ من حالهم." (أنوار الإسلام (أردو)، الخزائن الروحانية المجلد ٩ ص ٢٣-٢٤)

إذًا، هناك سبيل واحد للرقي القومي وهو قبول الموت وتقديم كل تضحية بلا تردد في سبيل الله تعالى.

والآن أبين الحكمة وراء الابتلاء والاختبار. اعلم أن أول هدف للابتلاء أن يتقوى إيمان المرء، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى لا يعلم نوعية إيمان الإنسان، وإنما الإنسان نفسه لا يعلم حقيقة إيمانه. وهناك حكاية تقول: كانت هناك امرأة اسمها "ميستي"، فمرضت ابنة لها مرضًا شديدًا، فكانت "ميستي" تدعو الله تعالى كل يوم: ربِّ، فلتصبني بهذا المرض وأَمِتْني مكان ابنتي. وكانت عند "ميستي" بقرة، وفي إحدى الليالي أدخلت البقرة رأسها في إناء ضيق، فحاولت إخراجه منه ولكن بدون

جدوى، فأخذت تتخبط في فناء البيت خبط عشواء، فاستيقظت المرأة ورأت أمامها مخلوقًا مخيفًا، فظنت أنه مَلَك الموت الذي جاء ليقبض روحها استجابةً لدعائها. فلم تلبث أن قالت: يا مَلَكَ الموت، لستُ أنا "ميستي"، بل أنا عجوز فقيرة أعمل جاهدة طوال النهار؛ ثم أشارت إلى سرير ابنتها وقالت: ها هي "ميستي" مستلقية على سريرها، فاقبضْ روحها.

فترى أن هذه المرأة كانت تظن أنها تحب ابنتها حبًّا جمًّا، ولكنها لما رأت "مَلَك الموت" علمت أنها لا تحب ابنتها حتى تكون فَدًى لها.

إنها مجرد حكاية، ولكن هذا هو الأمر الواقع في كثير من الحالات، حيث لا يعرف الإنسان حقيقة أفكاره، وعندما يقع في الاختبار يدرك مدى صدقه في حبه لشيء أو كراهيته له.

والحكمة الثانية في إلقاء المرء في الاختبار أن يعلم الناس مدى إيمانه، إذ ليس هناك سبيل آخر ليعرفوا ما إذا كان قويًا في إيمانه أو ضعيفًا. ولذلك قال الرسول ﷺ: كلما كان المرء عظيمًا عظُم اختباره، وأن الأنبياء أكثر الناس اختبارًا. كما قال المسيح الموعود عليه السلام عن نفسه في بيت شعر له بالفارسية:

كربلايست سير هر آنم

صد حسين است در گريبانم

(در ثمين (فارسي) ص ٢٤٨)

أي أجول في ميدان كربلاء كل حين، وأن في قلبي مئة حُسين.

يعترض بعض الناس على هذا البيت بأنه يمثّل إساءة إلى الإمام الحسين رضي الله عنه. ولكن هؤلاء لا يفكرون أنه عليه السلام قد قال هذا في معرض الحديث عن الشدائد والمحن، فبين أن الإمام الحسين رضي الله عنه قُتل مرة واحدة، ولكن العدو يسعى لقتلي في كل حين ويؤذيني دائمًا، وأرى مشهدًا ككربلاء كل آن. وأي شك في أن الموت على الصليب مرة واحدة ليس أشد من عيش المرء دائمًا في المحن والابتلاءات. يقول المسيحيون لقد مات المسيح على الصليب فآمِنوا بأنه ابن الله، ونحن نقول إذا كان

هذا صحيحًا فماذا ستقولون عن الذين يعيشون في الشدائد دائمًا كأنهم معلقون على الصليب كل حين؟ الحق أن هذه هي حالة الأنبياء كلهم، وتعرضُّهم للأذى باستمرار يكشف للناس قوة إيمانهم. يقال: "الاستقامة فوق الكرامة". والواقع أن أكبر استقامة ما يشهد بها العدو ولا يسعه إنكارها.

إذًا، فلا مناص من الابتلاء والصبر عليه برضا لتقوية الروحانية وتهذيب الأخلاق وتكميل الإيمان.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾

التفسير: يقول الله تعالى هنا متسائلاً: أيظن الذين يعملون أعمالاً سيئة أنهم ينجون من عقابنا بطريق أو بآخر؟ كلا، إذ ليس بوسع أحد أن يخدع الله تعالى ويفر من عقابه.

توضح هذه الآية أن المرء ليس بوسعه أن يتخذ قرارًا صائبًا عن مصيره هو، ناهيك عن مصير الآخرين. فكم من امرئ يظن أنه من أهل الصلاح والإيمان وسينجو من عذاب الله تعالى، ولكن عندما يأخذه العذاب يدرك أنه كان مخطئًا في ظنه. الحق أن الخواص من المؤمنين فقط يعلمون سلفًا عن صدق إيمانهم حيث قال الله تعالى في القرآن الكريم عنهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾(الأحزاب:٢٤). أي أن من الصحابة من قد أثبت صحة دعوى إيمانه، بينما ينتظر بعضهم ليثبت ذلك. ورد في الحديث أن الصحابي مالك بن أنس♦ الأنصاري

♦ لقد وقع هنا سهو إذ هو أنس بن النضر، وليس مالك بن أنس، بحسب جميع المصادر منها: البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...الخ﴾، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، والإصابة: القسم الأول مَن ذُكر له صحبة، باب الألف بعدها نون) (المترجم)

ﷺ لم يستطع أن يشارك في غزوة بدر، ولما سمع عن بطولات الصحابة الذين شهدوا بدرًا ثار حماسه فأخذ يمشي هنا وهناك وقال: لو أتاح الله لي الفرصة سأريكم كيف يضحي المؤمن. فشهد غزوة أحد، وعندما لم تثبت أقدام المسلمين في ميدان القتال لشدة هجوم الكافرين وابتعدوا عن النبي ﷺ، فانفرد وأُصيب بحجر وسقط على الأرض مغشيًا عليه وسقط عليه الجرحى الآخرون واختفى تحتهم، فأشيع أنه قد استشهد، فجرى البعض إلى المدينة التي كانت قريبة من أُحد وبلّغ أهلها باستشهاده ﷺ. وقد سقط هذا الخبر كالصاعقة على المسلمين الذين كانوا بعيدين عن النبي ﷺ وكان من بينهم عمر ﷺ: فأخذ يبكي جالسًا على صخرة. وكان مالك بن أنس يأكل التمر حين مرَّ بعمر، وكان لا يعرف ما حصل بعد الفتح الأول، فقال لعمر مستغربًا: لماذا تبكي وقد أعطانا الله الفتح؟ هذا وقت البكاء أم الفرحة؟ فنظر إليه عمر وقال: يبدو أنك لا تعلم أن الوضع قد انقلب بعد الفتح عندما أعاد العدو الكرّة من وراء الجبل وتشتت جيش المسلمين من شدة هجومه واستُشهد النبي ﷺ. وكان في يد مالك بن أنس آخر تمرة، فرماها على الأرض وقال: كيف تحول هذه التمرة بيني وبين حبيبي؟ ثم قال لعمر: إذا كان ما تقوله حقًا فلماذا تبكي هنا؟ علينا أن نلحق بحبيبنا ﷺ. ثم امتشق سيفه وصال على جموع العدو، ولكن إلى متى يقاوم شخص واحد مئات المحاربين، فتقطع جسمه إربًا في ثوان. وعندما كتب الله الفتح للمسلمين ثانية أمر النبي ﷺ بالبحث عن مالك بن أنس، فخرج الناس يبحثون عنه ثم عادوا وقالوا: لم نجد له أثرًا، فأعاد النبي ﷺ قوله. وكانت أخته قد وصلت من المدينة إلى ساحة المعركة بسماع خبر استشهاد النبي ﷺ، فرأت قطعًا من جثة أخيها فعرفته من إصبعه، فدلّت النبي ﷺ على جثته. يقول المفسرون إن قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ نزل في أنس بن مالك. ورغم أنني لا أهتم بأسباب النـــزول كثيرًا بيد أنه مما لا شك فيه أن حادثة مالك بن أنس قد وردت في التاريخ والحديث بتكرار وتبلغ كلمات القرآن الكريم من الوضوح والصراحة بحيث لا يسع المرء إلا الاعتراف بصحة سبب نـــزول هذه الآية.

إذًا، فكما أن بعض الكافرين لا يبرحون يظنون حتى النهاية أنهم سينجون من العذاب لأنهم يعملون الصالحات في زعمهم، وحين ينـــزل العقاب يدركون أنهم كانوا يعملون السيئات، كذلك يوقن بعض المؤمنين أنهم صادقون في إيمانهم فتؤكد الأحداث أيضًا – كما تؤكد الواقعة المذكورة آنفًا – أنهم بالفعل كانوا مصيبين في رأيهم. وقد أُشير إلى أمثال هؤلاء في الآية التالية أيضًا.

مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥

التفسير: أي من كان يرجو لقاء الله تعالى فليعلم أن لقاءه حق ولا بد أن يتحقق، وأن الله يستجيب الدعاء ويعلم كل شيء. لقد تحدثت الآياتُ السابقة عن موضوع الاختبار الذي تمر به جماعات الأنبياء، وعليه فالمراد من لقاء الله هنا تأييده ونصرته، حيث نبه تعالى المؤمنين ألا ييأسوا برؤية تفاقم فتنة الأعداء ولا يظنوا أبدًا أن الله تعالى سيخذلهم وأن العدو سيهلكهم؛ كلا، إنما يريد الله تعالى بهذه الفتن اختبارهم، وإلا فإنه معهم وإن ملائكته تعمل على تأييدهم. فمهما بلغ إيذاء العدو ومضايقته فعليهم أن يظلوا موقنين تمامًا أن الله سينجز وعده عند رقيهم حتمًا، وسيأتي لنصرتهم مسرعًا. فلو أنهم صبروا على الأذى والابتلاء و لم يُسيئوا بالله الظن بل أيقنوا أنه سينـــزل من السماء ويكسر أعناق الأعداء، فلا بد أن يعاملهم الله هكذا، ويبدي لهم غيرة لن يجدوا لها مثيلاً في أي مكان.

إن أكبر سبب لانحطاط المسلمين في هذا العصر أنهم لم يعودوا مؤمنين بإله حي، وظنوا أن زمن المعجزات والخوارق قد ولى وانتهى، فلا يقدر الله الآن – والعياذ به– على إراءة الآيات. وكانت نتيجة هذا الظن أنهم فقدوا الحماس لوصال الله تعالى واستولى عليهم القنوط. ولكن الإسلام يرفض هذه النظرية بشدة ويقول إن الذين يوقنون بلقاء حبيبهم ﷻ، أي بنصرته وتأييده، فإنه ينـــزل لنصرتهم من

السماء ويؤيدهم كما أيد جماعات الأنبياء من قبل. ولكن علينا أن نعلم أن لكل شيء أجلاً. هناك موعد للمصائب والبلايا، ووقت للانتصارات والفتوحات. وإنما المؤمن الكامل من يظل متوكلاً على الله تعالى أيام المصائب والبلايا، وعندما يبلغ يقينه منتهاه يسمع نداء الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾، فيهلك الله عدوه. وقد أشير إلى المعنى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.. أي أن الله تعالى يسمع دعاء المؤمنين ويعلم أحوالهم جيدًا، فكيف لا يستجيب دعاءهم ولا يعاقب العدو ليمنعه من سلوكه الغاشم؟

يحكى أن الملِك الروسي "بيتر" دخل في مقصورته في الطابق الثاني في إحدى المرات ليقوم بعمل مهم في هدوء وتركيز، وأمر أحد حراسه ألا يسمح لأحد – كائنا من كان – بالدخول عليه. و لم تكن هناك أبواب للغرف في الزمن القديم، بل كانوا يعلقون الستائر مكان الباب، ويتضح لنا بمطالعة الكتب العربية أنه لم تكن لغرف المسلمين أيضًا أبواب، ولذلك أمر الإسلام بالاستئذان قبل الدخول على أحد. المهم أن الملِك أمر حارسه "تولستاي" أن يجلس في الخارج ولا يسمح لأحد بالدخول عليه لأنه يريد أن يعمل بتركيز. وتصادف أن أحد أبناء الملك جاء ليدخل عليه مقصورته، وكان من القانون الملكي أن أحدًا لا يستطيع منع أحد الأمراء من الدخول على الملك، بل هم أحرار في زيارته متى شاؤوا دونما استئذان. وكان القانون لا يبيح أيضًا لأحد من غير الجيش أن يضرب رجلاً من الجيش، ولا يبيح لأحد من الضباط الصغار أن يضرب ضابطًا هو أكبر منه رتبة، أو لغير اللورد أن يضرب لوردًا. فأراد الأمير أن يدخل غرفة الملك، ولكن الحارس "تولستاي" تقدم وقال له: لقد أمرني الملك بعدم السماح لأحد بالدخول عليه. فقال الأمير: ألا تعلم أني أمير ومسموح لي الدخول على الملك بدون استئذان؟ فقال: نعم، إني أعلم ذلك. فاستشاط الأمير غضبًا وضربه بالسوط، قائلا: كيف تتجاسر على منعي من الدخول؟ وظن الأمير أن الحارس يكون قد عاد إلى صوابه بعد أن ضُرب بالسوط ثلاث أو أربع مرات، فهَمَّ بالدخول مرة أخرى، ولكن الحارس منعه وقال: حضرة الأمير، لقد منع الملِك الجميعَ من الدخول عليه. فضربه الأمير أكثر من ذي قبل

وظن أنه قد تلقن الدرس، وهمَّ بالدخول مرة ثالثة. فمدَّ "تولستاي" يديه ومنعه من الدخول وقال: حضرة الأمير لقد قال الملك: يجب أن لا يدخُلنَّ عليه أحد. فضربه الأمير للمرة الثالثة. وكان طبيعيًا أن ينتبه الملك إلى ما يجري في الخارج نتيجة ارتفاع أصوات الأمير والحارس عند الشجار، فظل يشاهد شجارهما جالسًا في مقصورته. فلما ضرب الأمير الحارس للمرة الثالثة نادى الملك حارسه متظاهرًا بالغضب وقال: "تولستاي"، تعال هنا. فدخل على الملك ودخل معه الأمير الغضبان أيضًا، وأراد أن يشكوه إلى الملك. فقال الملك لتولستاي: ما هذه الضجة التي كنت تثيرها؟ قال: مولاي، جاء الأمير وأراد الدخول عليك، فلم أسمح له لأنك أمرتني بذلك. فلما حاول الدخول عليك بقوة منعتُه. فقال الملك: فماذا حدث بعد ذلك؟ قال: فضربني الأمير. فتوجه الملك إلى ابنه وقال: أصحيح ما يقول "تولستاي"؟ قال: نعم. ولكن القانون الروسي لا يسمح بمنع الأمير من الدخول على الملك. فقال الملك: صحيح أن القانون الروسي لا يسمح بذلك، ولكن ألا تعلم أن للملك مسؤوليات كثيرة تجاه بلده، وأنه يحتاج أحيانًا إلى الهدوء والتركيز للقيام بأعماله، لأن الانفراد في هدوء ضروريٌّ من أجل التركيز والتدبر. فهل تريد أن يتم العمل بالقانون حرفيًا فقط، وإن لم يستطع الملك أداء واجباته تجاه البلاد. أمامي مهمة عظيمة للغاية، وأود الجلوس منفردًا في هدوء وأفكر في وضع خطة تُخرج البلاد من الخطر. ألا يحق لي، والحال هذه، أن أمنع أي شخص من الدخول عليّ حتى لا يشتّت عليّ أفكاري. لقد عمل "تولستاي" بذكاء واحترام وأطاع أوامري، أما أنت فعصيت أوامري مع أنك ابني، ثم لم تضربه على جرم ارتكبه بل ضربته على طاعته لي. ثم أعطى الملكُ "تولستاي" السوطَ وقال: قُمْ واجلِد الأمير بالسوط. فما كان من الأمير إلا أن قال: إن القانون الروسي لا يسمح بضرب رجل من الجيش بيد شخص ليس في الجيش، وأنا من الجيش وهذا ليس من الجيش. فقال الملك لتولستاي: ها إني أعطيك منصبًا في الجيش، فاضرب الأمير. وكأن الملك قال لابنه: إذا كان القانون الروسي لا يسمح لأحد من غير الجيش أن يضرب رجلاً من الجيش فإن منح المنصب في الجيش بيدي، وإني أمنح تولستاي منصبًا في الجيش.

فعاد الأمير وقال: إني ضابط في الجيش ولا يحق لأحد أن يضربني إلا إذا كان برتبتي. فقال الملك لتولستاي: ها إني أجعلك ضابطا. فقال الأمير: ولكن القانون الروسي ينص على أنه لا يجوز لغير اللورد إنـــزال العقاب بلورد. فقال الملك: إن خلع لقب لورد على أحد أيضًا بيدي، ثم توجه إلى تولستاي وقال: أيها اللورد تولستاي آمرك بعقاب الأمير. وهكذا قام الملك بتفنيد كل عذر قدّمه الأمير وجعله يُضرب بيد تولستاي الذي تعرّض للضرب من أجل الملك.

كذلك فإن الذي يتعرض للضرب بسبب إيمانه بالله تعالى وتلبية ندائه فلا يدَع الله ضارِبَه، صغيرًا كان أم كبيرًا، بدون عقاب، إذ لا يقاوم سوطُ أحد سوطَ الله. إن الناس يتباهون بكثرتهم وأحزابهم وحُكمهم، ولكن حكومة ربنا أكبر من كل حكومة ودولة. لقد قال الأنبياء عن نبينا ﷺ إنه حجر الزاوية، "ومَن سقَط على هذا الحجر يترضض، ومَن سقَط هو عليه يسحَقه"(متى ٢١ :٤٢-٤٤).. أي سواء حمل هو على أحد أو حمل عليه أحد فإن عدوه يعاقَب حتمًا في كل حال. والحق أن المسلمين أيضًا أحجار الزاوية باعتبارهم أتباعًا للنبي ﷺ، فمن توكل على الله منهم لم يترك الله عدوه بدون عقاب.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦

التفسير: لقد نبّه الله تعالى هنا المؤمنين أن كل ما يقومون به من عمل صالح إنما ينفعهم هم ولا ينفع الله شيئًا، لأنه تعالى غني عن عبادات الناس وتضحياتهم. فلا تظنوا أنكم تمنون على الله ورسوله بهذه التضحيات. إنما الواقع أن الله تعالى ليس بحاجة إلى تضحياتكم، بل أنتم بحاجة إلى فضله. وإذا وُفقتم لخير فليس في ذلك أيّ منّة على الله أو على جماعة المؤمنين، وإنما أحسنتم إلى أنفسكم. والذين لا يدركون هذه الحقيقة يعملون الحسنات حتى يصلوا إلى باب الجنة، ولكن زهوهم وكِبرهم

يسدّ طريقهم ويُسقطهم في الجحيم. فعلى المرء ألا يصاب بالكِبر والعُجب بعد عمل الصالحات أبدًا، بل عليه أن يشكر الله تعالى دائمًا إذ وفّقه للإيمان وثبّت قدمه عند المصائب والمحن.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

لنكفرن: كفّر الله له الذنبَ: محاه. (الأقرب)

وكفّر: أدّى الفدية، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾. والتكفير: سَتْرُه وتغطيتُه حتى يصير بمنـــزلة ما لم يُعمَلْ، ويصحّ أن يكون أصله إزالةَ الكفرِ والكفرانِ نحوَ التمريض في كونه إزالةً للمرض وتقذيةِ العين في إزالة القذى عنه. (المفردات)

لقد تبين مما سبق أن الكفارة تعني المحو؛ كأن تُمحى من القلب رغبة الإثم وعادته، ثانيًا: محو عقاب الإثم ونتيجته ومحو شهرة الإثم وفضيحته. كما أن الكفارة تعني أداء الفدية وإزالة الإثم.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا نظرية الإسلام عن جزاء الحسنة. حيث أخبر أن المرء إذا تاب توبةً نصوحًا غفر الله تعالى له ذنبه بل جعل ذنبه طي النسيان، بمعنى أنه يقلّل أثر ذنبه في ذاكرته، أو يمحوه من ذهنه ومن أذهان الآخرين أيضًا كليةً؛ حتى لا يشعر بالندم والخجل، وتظل عاطفة الخير غالبة عليه. ولذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. والمراد من التكفير هنا محو أثر الإثم من الأذهان كلية إرساءً لعزتهم وصيانةً لشرفهم، ذلك لأن الحديث هنا عن الذين يعملون الصالحات والكاملين في الإيمان. إذًا، فلا يمكن أن يعني التكفير ترك الإثم فقط إذ إنهم يعملون

الصالحات سلفًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فبين فيه أنه تعالى عندما يجزي الإنسان فلا يجزيه بناءً على أعماله الضعيفة بل على أفضل أعماله، بينما نرى في الدنيا العكس؛ حيث إن الناس إذا أرادوا جزاء أحد على أعماله وضعوا في الاعتبار تقصيراته أيضًا.. أي يجزونه بحسب الأعمال الصادرة عنه عمومًا؛ فيما يسمونه "القاعدة الوسطى". والحق أن كل جزاء في الدنيا يكون مبنيًا على هذه القاعدة، حتى إن الحكومات تمنح معاش التقاعد أيضًا بحسب هذه القاعدة، حيث تنظر عند تحديد معاش الموظف إلى معدل دخله في السنوات الثلاث الأخيرة. فمثلاً إذا كان دخله قبل التقاعد بثلاث سنوات ثلاثَ مئة جنيه، وقبل سنتين من التقاعد أربع مئة جنيه، وفي السنة الأخيرة خمس مئة جنيه، فستعطيه الحكومة مئتي جنيه التي هي نصف أربع مئة جنيه، ولن تعطيه مئتي جنيه وخمسين التي هي نصف راتبه الشهري في السنة الأخيرة. ولكن الله تعالى هو مالك يوم الدين، وكلما جزى المرءَ جزاه بناءً على مالكيته تعالى، فلا يكون في عطائه هضم لحقوق الآخرين، لذلك تختلف القاعدة التي وضعها الله تعالى لإعطاء الجزاء الحسن عن قاعدة أهل الدنيا، وهي أنه تعالى لا يعطي المرء جزاء أعماله الحسنة بحسب مستوى أعماله عند الموت، بل يجزيه بحسب أفضل عمل قام به في حياته كلها في أي وقت. لنفترض أن للحسنة عشر درجات، وأن شخصًا كان في الدرجة السابعة عند موته، ولكنه كان في الدرجة الثامنة أو التاسعة قبل الموت بأربع سنين، ثم سقط عن هذه الدرجة ولم يستطع خدمة الدين كما استطاع من قبل نتيجة ضعفٍ في جسمه أو في عقله، فإن الله تعالى لن يمنحه الدرجة التي كان عليها عند الموت، بل يهب له تلك الدرجة الأسمى التي كان عليها من قبل.

باختصار عندما يجزي الله الإنسان على أعماله الحسنة فينظر إلى أسمى درجة بلغها في حياته ويجزيه بحسبها متغاضيًا عن التغيرات والتقصيرات التي حصلت في حياته فيما بعد.

وهناك آيات عديدة في القرآن الكريم بهذا الصدد وإحداها الآيةُ قيد التفسير.

فمن الواضح أنها لا تعني أبدًا أن الله تعالى يجزي الإنسان على أفضل أعماله ولا يجزيه على الأعمال الحسنة التي تكون دونه، لأن هذا لا ينفع العبد بل يضره، إذ إنه سيزداد جزاءً إذا أُضيف جزاء الأعمال الصغيرة إلى جزاء الأعمال الكبيرة الرفيعة ولا ينقصه؛ أما إذا جُوزِيَ على الأعمال الكبيرة بدون الأعمال الصغيرة صار جزاؤه أقل قوة؛ وعلى سبيل المثال إن عدد ١٠ أكبر من ٦ و٧، ولكنه ليس أكبر من ١٠+٦+٧، ولو طرحت من عدد العشرة الستةَ والسبعةَ صار أقل قوة. فليس المراد من قول الله تعالى هذا أنه يجزي المرء على أفضل أعماله فقط؛ ولا يجزيه على ما دونها من أعماله الحسنة. فثبت من ذلك أن الله تعالى لا يتحدث هنا عن الجزاء العام بل يتحدث عن الجزاء الخاص، إذ من المعروف أنه تعالى لن يضيع عند الجزاء العام أي عمل حسن مهما كان ضئيلاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزال:٨)، أما الجزاء الذي يذكره الله تعالى هنا فينتفع فيه الإنسان إذا ما فُصل أفضل عمل قام به، أما إذا قُرنت إليه أعماله الحسنة الأخرى قلّ جزاؤه. شأنه شأن أفضل لوحة يرسمها رسّام. لا شك أن الرسام يرسم في حياته آلاف اللوحات، ولا شك أنها لا تكون على مستوى واحد من الإبداع، بل تتفاوت درجة، فبعضها تكون أروع وبعضها متوسطة وبعضها أدنى. وليس ضروريًا أن يكون قد رسم أفضل لوحاته التي هي ذروة عمله والتي تسمى بالإنجليزية (master piece) في آخر حياته، بل قد يرسمها في أوائل أيام عمله أو في وسطها أو في آخرها. ولو أُعيد هذا الرسام إلى الحياة مرة أخرى وأُعطي مهارة فن الرسم بحسب معدل إبداع لوحاته التي رسمها طوال حياته أو التي رسمها في أواخر حياته، فلا شك أن مهارته تكون أقل درجة، أما إذا أُعطي في حياته الثانية مهارة الرسم بحسب أروع لوحاته لكانت درجة مهارته أعلى يقينًا. ذلك لأن الإنسان تأتي عليه ساعات من القبض والبسط، ولا شك أن معدل هذه الساعات كلها أعلى من ساعات القبض، ولكنه أدنى من ساعات البسط. وهذا هو الأمر الذي قد أشار الله تعالى إليه في هذه الآية، فبين أن قوة العمل التي ستوهب للإنسان في الحياة الأخرى لن تكون بحسب معدل ترقياته وإنجازاته في الحياة الأولى، بل ستكون بحسب مستوى الرقي الذي بلغ فيه الذروة

والكمال في حياته الأولى؛ فيبلغ الدرجات العلى بسرعة فائقة. وبحسب هذا المعنى يصبح جزاء الإنسان طبقًا لأفضل عمل له إنعامًا عظيمًا يرقص له قلبه. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

التفسير: والمراد من قوله تعالى: ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾.. أي حيث إن الله تعالى هو الذي أمر المؤمن بالإحسان إلى والديه فكيف يمكن أن يسيء معاملته مع الله تعالى الذي هو أكثر إحسانًا من والديه، فيطيعهما إذا أمراه بخلاف مشيئة الله تعالى؟

إذًا، فمن واجب الإنسان أن يعامل والديه بالحسنى دائمًا ولا يعصيهما أبدًا إلا في هذه الحالة الاستثنائية. ولكن المؤسف أن كثيرًا من الشباب في هذا العصر لا يحترمون والديهم كما ينبغي، ولا يؤدون حقوقهم، بل إذا تقلد بعضهم منصبًا مرموقًا خجل من لقاء والديه الفقيرين. كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أن هندوسيًا علّم ابنه بصرف مال كثير رغم فقره الشديد، حتى حصل على شهادة الماجستير، وتقلد منصب حاكم محافظة. وهذا المنصب كان يُعتبر في الماضي مرموقًا جدًا، وإن كان لا يُعتبر كذلك الآن. ففرح أبوه وخرج يومًا لمقابلته في مكتبه. فلما وصل إلى المكتب وجد ابنه جالسًا مع كبار الرجال من المحامين وغيرهم، فدخل في مكتبه بثيابه الرثة البالية فجلس معهم. فتضايق أحدهم من جلوس شخصٍ رثِّ الثياب معه وسأل الابنَ: من هذا الذي جاء وجلس معنا؟ فخجل ابنه وأراد إخفاء الحقيقة فقال: هذا بعضُ خدمنا. فثار أبوه غيظًا وهبّ من مكانه وقال: لا، لستُ مِن خدمه، وإنما أنا خادم أُمّه. فلما علموا أنه أبوه لاموه كثيرًا وقالوا: لِمَ لم تخبرنا

حتى نبدي لأبيك الاحترام الواجب، ونعطيه مكانًا يليق به؟

ونرى مثل هذه المشاهد يوميًا حيث يفر الناس من أقاربهم الفقراء خوفًا من تعيير الناس بهم. وهكذا يسيئ هؤلاء إلى آبائهم بدلاً من أن يكونوا فخرًا لهم. وباستثناء الذين يبدون لوالديهم الإجلال والاحترام لأن الله تعالى أمرهم بذلك، يوجد بين أهل الدنيا عدد قليل جدًّا ممن يكرمون والديهم حق الإكرام. وهذا العيب موجود بين المثقفين وغير المثقفين على حد سواء.

ثم هناك شباب لا يعتنون بأمهاتهم، وإذا سئلوا قالوا: إن أمي عصبية المزاج، وليست على وئام مع زوجتي. وشتان بين الأم والزوجة! فما هي التضحية التي قدمتها زوجته من أجله؟ إنها تخدمه وهو شاب، ولكن أمّه قد أرضعته من ثديها وهو طفل صغير. فأمّه التي أرضعته دمها لبنًا وقامت بتربيته وتعليمه بمشقة وعناء فإنه يُعرض عنها زاعمًا أن أمه عصبية وأن زوجته لا تتحملها. فمن واجبكم أن تقضوا على هذا العيب الخطير، واخدموا والديكم، وإلا ستُحرَمون من الجنة التي قد جُعلت تحت أقدامهما.

وقال الله تعالى في آخر الآية: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.. أي أن مصيركم إلى الله تعالى في نهاية المطاف، وهو الذي سيأتي بنتائج أعمالكم، فمن واجبكم ألا تطيعوا والديكم إذا أمروكم بالإشراك بالله تعالى؛ أما فيما سواه من معاملات الدنيا فعاملوهما بالحسنى وأطيعوهما طاعة كاملة.

ورد في الحديث أن بنتًا لأبي بكر ﷺ - وكانت أختًا لإحدى أزواج الرسول ﷺ - جاءتها أمُّها، فقالت: يا رسول الله، لقد جاءتني أمي ولكنها كافرة، فهل أُحسن إليها؟ فقال النبي ﷺ: نعم، لا حرج في ذلك، إذ إنه أمر يتعلق بالدنيا لا بالدين.◈

وورد في الحديث أيضًا أن النبي ﷺ أهدى عمرَ ﷺ حُلّةً من حرير، فقال: يا

◈ نص الحديث كالآتي: "عن أسماء قالت: قدمتْ أُمّي وهي مشركة، في عهد قريش ومُدّتهم إذ عاهدوا النبي ﷺ، مع أبيها، فاستفتيتُ النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمتْ وهي راغبة؟ قال: نعم، صِلي أُمَّك". (البخاري: كتاب الأدب، باب صلة المرأة أُمَّها ولها زوج) (المترجم)

رسول الله، لقد أهديتُك مرة عباءةَ حرير فلم تحب ذلك، والآن تُهديني عباءة حرير، فهل ألبسها؟ فقال ﷺ: إني لم أُعطِكها لتلبسها بل تبيعها أو تهديها لأحد. فبعث بها عمر رضي الله عنه إلى أخ له كافرٍ في مكة. (البخاري: كتاب الأدب، باب صلة الأخ المشرك)

وهذا يبين أن الاختلاف في الدين لا يعني قطع الصلات عن الأقارب كلية، بل من واجب المؤمن أن يحترم والديه وأقاربه ويحسن إليهم دائمًا.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قد وصّى بالإحسان إلى الآباء في معرض الحديث عن الاختبار والابتلاء، وذلك لأن الشباب يقبلون الحق عادةً عند بعثة الأنبياء كونهم متحررين في أفكارهم، ولكن آباءهم لا يرضون بترك عقائدهم البالية. والاختلاف في العقيدة يُحدث شرخًا واسعًا بين الآباء والأولاد، فيعامل الآباء أولادهم بقسوة أحيانًا، فيطردونهم من بيوتهم ويحرمونهم من عقاراتهم؛ ولذلك نبه الله المؤمنين هنا أنه مما لا شك فيه أن قبولكم الحق حسنة كبيرة، ولكن هذا لا يعني أن تمتنعوا عن الإحسان إلى والديكم نتيجة معاملتهم القاسية، وإنما واجبكم أن تحسنوا إليهم دائمًا وتعاملوهم بالحب والرفق في أمور الدنيا، أما إذا حاولوا إبعادكم عن الله ورسوله فقولوا لهم فورًا لن نطيعكم في هذا أبدًا.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الذين يؤمنون بمحمد بصدق القلب ثم يعملون أعمالاً صالحة بحسب إيمانهم، سيدخلهم الله في الصالحين.. أي في أولئك الصالحين الصادقين الذين قد وعد لهم الله في الزبور بأنهم يرثون أرض فلسطين (المزامير ٣٧: ٢٩). وهذا يعني أن الوعد الذي قُطع لبني إسرائيل كان قد انتقل إلى المسلمين الآن نتيجة إيمانهم وصالح أعمالهم. وبالفعل قد ظلت فلسطين بأيدي المسلمين ما داموا

صالحين، ولكنهم لما فسدوا فقدوا فلسطين. إلا أن حرمانهم منها مؤقت كما هو واضح من آيات أخرى من القرآن الكريم، وسيأتي بهم الله إلى فلسطين ثانية ويبدّل هزيمتهم فتحًا إن شاء.

إن الشعب الأمريكي شعب ذكي جدًا، ولكنه قد أخطأ هذه المرة خطأً فادحًا حيث قام لمساندة شعب مُدان من قبل التوراة والقرآن الكريم أيضًا. فإذا كان اليهود يريدون البقاء في فلسطين فهناك سبيل واحد لذلك، وهو أن ينضموا إلى ﴿الصالحين﴾. إذ ليس بينهم وبين الله تعالى عداء شخصي. إنهم من أولاد إبراهيم عليه السلام، وإذا أصبحوا صالحين بقوا في هذه البلاد. ولكن القرآن الكريم قد قام بشرح عن هؤلاء ﴿الصالحين﴾، فبيّن أن الذين يطيعون محمدًا رسول الله ﷺ هم الذين ينالون درجة الصالحين والشهداء والصديقين، فلا بد للمرء من طاعة محمد ﷺ بصدق ليُعدّ من الصالحين. فلو آمن اليهود بمحمد ﷺ لأبقاهم الله تعالى في هذه البلاد، وأصبحوا إخوة للمسلمين كما كان إسحاق أخًا لإسماعيل – عليهما السلام. فليس هناك مانع من أن يتشجعوا وينتفعوا من هذا القانون الرباني.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١٢﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن من الناس من يرى الكفاية في إعلانه بالإيمان باللسان فقط، وإذا تعرض للعذاب في سبيل الله تعالى جعل إيذاء الناس كعذاب الله تعالى، وإذا جاءك نصر من ربك حاول كتمان الحقيقة وأتى المسلمين قائلاً: إني معكم، مع أنه كان معهم باللسان فقط لا بالقلب. على المؤمنين أن يتجنبوا هذا

السلوك الدال على الجبن ويتمسكوا بالصدق بقوة دائمًا.

إن أكبر عائق في سبيل انتشار الحق في هذا العصر أن الناس لا يستطيعون مقاومة قومهم وتقاليد بلادهم. هناك مئات الآلاف من الأوروبيين الذين قد أيقنت قلوبهم بصدق الإسلام، ولكنهم مصفّدون بتقاليد قومهم ويخافون أهل بلادهم وجيرانهم. ولو أنهم تشجعوا لما قبلوا الحق بأنفسهم فحسب، بل قبِله آلاف مثلهم ولانتشر الحق في أيام بما لم ينتشر في قرون. ذلك لأن هذا العصر يتميز بسمة بارزة رغم كل ما فيه من مفاسد وعيوب، وهذه السمة البارزة هي أن كنوز العلم قد خرجت فيه إلى النور، فتوجد في كل مجال من العلم كتب كثيرة بحيث أصبحت العلوم في متناول الإنسان. وهذا لم يكن ميسرًا للذين خلوا من قبل. فطوبى لمن يغتنم هذه الفرصة ويساعد على إقامة الدين الحق بتقديم مثاله الحسن. ولا شك أن الله تعالى سيمطر عليه فضله وستدعو له الأجيال في المستقبل. وإننا في انتظار أولئك القوم من أوروبا وأمريكا الذين سيتبوءون هذه المكانة العظيمة.

أما قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾، فيوضح أن هناك فرقًا واضحًا بين الابتلاء والعذاب، ولكن الناس لا يلاحظون هذا الفرق جراء جهلهم، فيعتبرون المصائب التي يواجهونها في سبيل الله تعالى سببًا لهلاكهم، مع أنها سبب لرقيهم وغلبتهم. وفيما يلي الفروق البارزة بين الابتلاء والعذاب:

الأول: إن العذاب يهلك ويدمر، ولكن الابتلاء لا يدمر، وإن كان لا بد من المعاناة في كلتا الحالتين. خذوا مثلاً الرسول ﷺ، فكم من موطن حاصرَه فيه الأعداء وهو وحيد، ولكن الله تعالى أنقذه في كل مرة. أما أبو جهل فأُخذ مرة واحدة مع جنوده وهلَك.

الثاني: إن العذاب يزيد المرء خسرانًا، أما الابتلاء فيزيده خيرًا. ومثال الابتلاء ككرة مطاطية كلما رميت بها الأرض بقوة أكثر ارتدت أعلى من ذي قبل، ولكن العذاب إذا ضرب بالإنسان فلا يقوى على النهوض مرة أخرى.

الثالث: إن العذاب يملأ قلب الإنسان يأسًا وحزنًا، أما الابتلاء فيبعثه على

الاطمئنان والسكينة. عندما ينـــزل العذاب على الشخص المغضوب عليه يدعو الويل والثبور، أو يزداد كبرًا وزهوًا إذا لم يُصبه الحزن عند نزول العذاب ويقول في كبرياء: من ذا الذي يقدر على أن يُهلكني؟ أما إذا جاء الابتلاء فيقول المرء: لا ضير، لأن ربي قوي وإن كنتُ ضعيفًا وعديم الحيلة ، فيزداد يقينًا بالله تعالى ويحسن به الظن أكثر من ذي قبل.

الرابع: عندما يحاول الإنسان دفع العذاب عنه يتخبط خبط عشواء، ولكن الذي يأتي عليه الابتلاء يزداد ذكاءً وصوابًا. فانظرْ كيف تتبّع الكافرون آثار النبي ﷺ ووصلوا إلى مدخل غار ثور الذي كان مختفيًا فيه، حتى قال لهم قصّاص الأثر إما أن محمدًا قد صعد إلى السماء أو أنه مختف في هذه المغارة. ورغم أنهم كانوا يثقون بقصّاصي الأثر كثيرًا وكانت حياة النبي ﷺ مهددة بالخطر الشديد، إلا أنه ﷺ ظل رابط الجأش لم يصبه قلق ولا خوف، بل لقد هدّأ من روع أبي بكر قائلا له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠). وفي إحدى المرات كان النبي ﷺ نائمًا، فجاء كافر واستلّ سيفه وأراد قتله، ولكنه ﷺ لم يخفه. وعندما سأله الكافر: من ينقذك مني الآن؟ قال له بكل هدوء: الله. فانبهر الكافر بهذه السكينة النادرة وسقط السيف من يده. (البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع)

الخامس: لا يحس صاحب الابتلاء بالبلاء ولا يبالي بالتعذيب، بل يجد فيه لذة موقنًا أنه يضحي بالأدنى من أجل الأعلى. فمثلاً إذا ضاع ماله قال: لقد ذهب في سبيل الله تعالى، فما الداعي للحزن؟ وإذا مات ابنه قال: كان هبةً من الله تعالى، فلماذا أحزن إذا استدعاه؟ كان المسيح الموعود عليه السلام يحب ابنه "مبارك أحمد" حبًا شديدًا، وقد اعتنى به في مرضه عناية بالغة حتى ظن الخليفةُ الأول رضي الله عنه أن وفاة "مبارك أحمد" ستصيب المسيح الموعود عليه السلام بصدمة شديدة. كان الخليفة الأول يجس نبض "مبارك أحمد" في آخر لحظات حياته، فوجد أن نبضه أخذ يتوقف، فطلب إلى المسيح الموعود عليه السلام أن يُحضر المسك، ثم سقط على الأرض خوفًا على المسيح الموعود عليه السلام من صدمة موت ابنه. ولكن المسيح الموعود عليه السلام لما علِم

بوفاة ابنه، جلس لتوّه يكتب الرسائل لأصحابه صابرًا محتسبًا، وقال: لقد توفي مبارك أحمد ولكنا لا نحزن بل نرضى بمشيئة الله صابرين. ثم خرج وبدأ يتكلم مع أصحابه مبتسمًا ويقول: لقد تحقق وحي الله تعالى الذي تلقيته عن ابني مبارك أحمد. ومما قاله عليه السلام في رثائه:

بلانے والا ھے سب سے پیارا

اسی پہ اے دل تو جاں فدا کر

أي يا قلب، إن الذي دعاه هو أحبُّ الأحبّة، فكن أنت أيضًا فداءً له ﷻ.

باختصار، إن الابتلاء لا يصيب الإنسان بصدمة يفقد بها الهمة لعلمه أنه يضحي بالأدنى من أجل الأعلى. لا شك أن العذاب الشديد أيضًا يُفقد المرءَ الإحساس بالألم أحيانًا، ولكن سببه اختلال الحواس. لقد مرّ الخليفة الأول رضي الله عنه مرة بامرأة وسألها: كيف فلان من أقاربك؟ فضحكت وقالت: لقد مات. فسألها: عن بعض أقاربها الآخرين، فكانت تضحك في كل مرة وتقول: لقد ماتوا. لم تكن هذه المرأة تضحك لإيمانها بأن الجميع راجعون إلى الله، بل كانت مصابة في عقلها، فلم تعد تحس بالغم.

السادس: إن العذاب يقلل روحانية الإنسان إذ يُبعده عن الله تعالى. أما الابتلاء فيزيد الإنسان تقرّبًا إلى الله تعالى.

هذه هي أهم الفروق بين الابتلاء والعذاب والتي يجب تذكرها.

أما قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، فبيّن فيه أن الجبناء يخذلون المؤمنين وقت الشدائد ويأتون إليهم عندما تزول المصيبة ويأتي الفتح قائلين إنا معكم ليشركوهم في الجزاء والنعم. أوَ لا يعلم هؤلاء الجبناء أن الله تعالى هو الذي يعطي الجزاء وليس المؤمنون؟ فماذا ينفعهم المال أو المنصب لو حصلوا عليه عن طريق الخداع، لأن الله الذي يعطي الإنعام الحقيقي يعلم خداعهم جيدًا، فلن ينفعهم احتيالهم، بل سيهزّهم الله تعالى بمزيد من الابتلاءات التي تفضح نفاقهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.. أي أن الله

تعالى لن يبرح يبتلي الناس ويختبرهم ليكشف للعالم من المؤمن ومن المنافق، وستنكشف للمنافقين أنفسهم حقيقة ادعائهم بالإيمان.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالاً مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾

التفسير: هذا ما يقول الكافرون للمؤمنين عند غلبة اليأس. مما يكشف أن الكفر يسلب عقل صاحبه حيث يقول كبار الحكماء من الكافرين ما يُضحك الطفل أيضًا. فمثلاً لو قارنتَ بين ما بيّنتْه الآيات السابقة من طريق طبيعي للنجاة من الإثم وهو أن يتوب المرء ويسعى للقاء الله تعالى ويجاهد في سبيله، وبين ما يصفه الكافرون من طريق غير طبيعي للنجاة لتبينَ لك أن ما يقوله القرآن الكريم هو الحق والصدق، وأن ما يقوله المعارضون مجرد هراء. فادعاؤهم بأن المؤمنين لو اتبعوهم لحملوا عنهم خطاياهم مناف للعقل تمامًا، إذ لا أحد يقدر على حمل خطايا غيره، فلا يحمل المؤمن خطايا الكافر، ولا الكافر خطايا المؤمن؛ وإنما يرفع الله عن المرء خطاياه بالعفو عنه. وهذا هو الطريق الطبيعي الحق الذي يُسمى "توبة".

باختصار إن الإسلام الذي هو دين الفطرة يفتح للآثم باب التوبة ويؤمّله في لقاء الله تعالى، ولكن الأديان الأخرى تعلّم خلاف هذا الطريق الفطري. فمثلاً تقول المسيحية أن الناس لو آمنوا بيسوع المسيح غُفرت خطاياهم لمجرد إيمانهم. إذ تقول المسيحية أن الشيطان أغوى آدم وزوجته حواء، وجعلهما آثمين، وكل إنسان يولد في الدنيا حاملاً خطيئتهما بالوراثة؛ وبما أن الله تعالى عادل ويقتضي عدله أن يعاقب كل آثم، فيستوجب كل إنسان العقاب نتيجة خطيئة آدم وحواء؛ ولكن رحمة الله

تقتضي العفو عن الخطاة، فأوجد الله حل هذه المعضلة بأن أرسل ابنه الوحيد إلى الدنيا ليموت على الصليب مع أنه بلا خطيئة، ويُدعى كاذبًا مع أنه صادق. فظهر ابن الله في الدنيا في صورة المسيح، فصلبه اليهود بدون ذنب، فحمل ذنوب جميع المؤمنين به ونجاهم. (التكوين ٣ والرومية ٣: ٩، والرومية ٥: ٩-٢١)

وتتعارض هذه النظرية مع العقل كل التعارض وكلما تدبر فيها الإنسان أخذته الحيرة وتساءل: ما هذا الطريق العجيب الغريب لغفران الذنوب؟ إذا كان العفو عن الخاطئ منافيًا للعدل فإن عقاب البريء أيضًا مخالف للعدل، فكيف حمل ابن الله تعالى خطايا الآخرين، وكيف عاقب الله البريءَ؟

ثم إنه لمما يتنافى مع العقل كل المنافاة أن يرث الابن كل ما يفعله أبوه. لو كان هذا صحيحًا لكان أولاد الآباء الجاهلين جهالاً دائمًا، وأولاد العلماء علماء دائمًا، وأولاد المسلولين مسلولين دائمًا، وأولاد المجذومين مجذومين دائمًا. الواقع أن الإرث يكون في أشياء ولا يكون في أشياء أخرى. ثم إن الأمور التي يمكن انتقالها إلى الأولاد وراثيًا قد جعل الله تعالى هناك ما يمكن أن يجنّبهم منها أيضًا، لولا ذلك لصار التعليم والدعوة والتبليغ أمرًا عبثًا. إن إيمان أولاد الكافرين دليل أن الله تعالى لم يجعل أمور الإيمان خاضعة لقانون الوراثة. لو كان قانون الوراثة يعمل في أمور الدين والإيمان لصارت بعثة المسيح نفسها عبثًا. يقول الإسلام إن الله تعالى قد خلق الناس مزوَّدين بالقدرة على إحراز الحسنة، فمنهم من يطور هذه الكفاءات ويفلح، ومنهم من يضيعها ويفشل. لا شك أن قانون الشريعة كله صالح للعمل، إلا أن النجاة ليس أساسها العمل، وإنما أساسها الإيمان الذي يجذب فضل الله تعالى، أما العمل فهو وسيلة لتكميل الإيمان. ولا شك أن العمل ضروري جدًا، إلا أنه مجرد وسيلة في كل حال، ونقصان الوسيلة لا يعني فقدان الشيء. إن الشجرة تنبت من البذرة ولكنها تنمو بالماء، ومثل الإيمان كالبذرة ومثل العمل كالماء الذي ينميه؛ ومن المحال أن تنبت الشجرة بمجرد الماء، ولكن لو كانت البذرة ناقصة والماء قليلاً فأيضًا يمكن أن تنبت الشجرة ولو كانت ضعيفة. إن الفلاحين يخطئون دائمًا في سقي زرعهم، ولكن هذا لا يُهلك الزرع كله إلا إذا كان الخطأ فادحًا جدًا. إن

عمل الإنسان يُنضّر الإيمان، ونقصان العمل يؤدي إلى النقصان في الإيمان، ولكن لو ظل النقصان في العمل دون حدود الشر والبغي لم يدمر زرع الإيمان. أما إذا بلغ نقصان العمل حد الشر والبغي فإن عدل الله تعالى لا يحول دون التوبة؛ إذ ليس العدل أن يُعاقَب المجرم بالضرورة، وإنما العدل ألا يُعاقَب البريء. فعفوُ الله عن العاصي رحمةً به لا يتنافى مع عدله، بل هو مطابق له تمامًا. لو كان المراد من العدل إعطاء الجزاء على كل عمل بقدره فما معنى الغفران والنجاة إذًا؟ لأن العدل يعني المساواة. لو كان قولهم صحيحًا فيجب ألا يُمنح المرء النجاة إلا بقدر أيام عمره وبقدر أعماله فقط؛ ولكن لا أحد يقبل هذا. فلا أدري كيف يحددون رحمة الله تعالى بحجة العدل؟ يقول الإسلام إن الله تعالى مالكٌ، والمالك ليس مجبورًا أن ينعم أو يغفر بحدود معينة. لا شك أنه يزن أعمال الناس، ولكنه يزنها كي لا يعطى أحد أقلَّ مما يستحق، وليس لكيلا يُمنح أحد أكثر مما يستحق. لا شك أن المسيح عليه السلام كان إنسانًا معصومًا عن الخطأ وكان رسولاً من عند الله تعالى، ولكن من الخطأ القول أنه سيحمل ذنوب الآخرين. كلا، بل سيحمل كل إنسان صليبه بنفسه يوم القيامة، إلا أن يضع الله عنه حمله ويعفو عنه بفضله.

والحق أن المسيح عليه السلام أيضًا قد قدّم نفس النظرية في الإنجيل حيث قال: "ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقّني." (متى ١٠: ٣٨). إن قوله عليه السلام هذا يبطل زعم المسيحيين أن المسيح قد حمل خطايا الآثمين. كلا، بل إن كل إنسان سيحمل صليبه بنفسه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٥﴾

التفسير: لقد ذكر الله هنا نوحًا عليه السلام مع أن الله تعالى لم يتحدث عن قومه في الآيات السابقة، إنما ذكَر المسلمين فقط، فقال أيحسبون أنهم لن يُلقَوا في أي فتنة

ويُتركون بدون اختبار؟ فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا ذُكر نوح عليه السلام بعد ذكر المسلمين هنا؟

والجواب لقد ذُكر هنا قوم نوح لأن الله تعالى قد بين من قبل أن سنة اختبار الناس مستمرة منذ القديم، وكان نوح عليه السلام أول أو ثاني نبي مشرع على الأقل بعد آدم، فكان في ذكر أحداث بعض الأنبياء منذ ذلك الزمن تأكيدٌ لسنة الله المستمرة بصدد اختبار المؤمنين. إذًا فجاء ذكر نوح عليه السلام هنا كحلقة من سلسلة اختبار المؤمنين.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فلا يعني أن نوحًا بلغ من العمر تسع مئة وخمسين عامًا، إنما هذا إشارة إلى عمره الروحاني.. أي أن شريعته بقيت في قومه تلك المدة، ثم اندرست.

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

التفسير: لقد ذكر الله هنا الابتلاءات التي تعرضت لها جماعة نوح عليه السلام، حيث بين أن الناس آذوا نوحًا وأتباعه أذًى شديدًا حتى اضطر هؤلاء كلهم للهجرة من وطنهم في سفينة أصبحت آيةً من الله للأجيال التالية. وبالفعل لا تزال هذه السفينة موضع نقاش عند الناس حتى اليوم، فيرى العلماء آثارها في أرمينيا تارة وفي روسيا تارة أخرى، مع أنه من المحتمل تمامًا أن يكون أعداء أكثر من رسول قد تعرضوا لعذاب مماثل لعذاب قوم نوح وأن يكون هؤلاء الأنبياء قد نجوا بالسفينة في زمنهم؛ فمن الممكن أن تكون هناك سفن عديدة – لا سفينة واحدة – قد جُعلت في شتى العصور آية من عند الله تعالى. ذلك لأن كل رسول يحل محل رسول آخر وقد حصلت مع العديد منهم أحداث مماثلة، فمثلاً قد نجا يونس عليه السلام بالسفينة أيضًا، وقد اضطر موسى للهجرة من مصر واضطر محمد ﷺ للهجرة من مكة. فيبدو من ذلك أن عذابًا كعذاب زمن نوح قد أتى على شعوب شتى وبلاد مختلفة، ولكن الناس قد أخطأوا واعتبروا كل هذه الأحداث حدثًا واحدًا.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾

التفسير: لقد ذكر الله هنا إبراهيم عليه السلام بعد نوح – عليهما السلام – وذلك لأنه كان من أمة نوح، لقوله تعالى في موضع آخر ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤).. أي كان إبراهيم من أتباع نوح.

وقد تبين من ذلك أن زمن نوح عليه السلام كان ممتدًا إلى زمن إبراهيم، وبالتالي فلا يعني قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أن نوحًا عاش في قومه هذه المدة بجسده، بل المراد أن شريعته ظلت نبراسًا للناس في تلك الفترة التي تمتد إلى زمن إبراهيم وموسى؛ وهكذا كان عمره الروحاني تسع مئة وخمسين عامًا.

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾

التفسير: لقد بُعث إبراهيم عليه السلام في عصر قد تفشى فيه الشرك والوثنية، فقام بجهاد كبير للقضاء عليه. لا شك أن الشرك كان موجودًا في زمن نوح أيضًا، ولكن معرفة الناس بصفات الله تعالى كانت عندها في مراحلها الأولى؛ وبالتالي كان الشرك أيضًا في شكله البسيط.. أعني أن بعض الناس عبدوا تماثيل الصالحين، وبعضهم اتبعوا طرقًا بسيطة أخرى للشرك. أما في زمن إبراهيم فكان الشرك قد تحول إلى موضوع فلسفي حيث أخذت الفلسفة تغزو العقول من ناحية، ومن

ناحية أخرى اطلع الناس على دقائق توحيد البارئ أيضًا التي كان العمل بها أصعب من العمل بمسائل التوحيد البسيطة. فمثلا لو قلت اليوم للوثنيين: لماذا تعبدون الأوثان؟ يقولون: نحن لا نعبدها وإنما نضعها أمامنا من أجل التركيز، وهذا يعني أن الشرك موجود الآن كما كان في الماضي، ولكنه قد اصطبغ اليوم بصبغة جديدة. كذلك كان الناس في زمن إبراهيم عليه السلام قد صبغوا الشرك صبغة جديدة، ولذلك لم يكتف إبراهيم عليه السلام بنصح قومه بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، بل أضاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فنبّههم هنا إلى خمسة أمور أوّلها: أن ظنهم عن آلهتهم التي يعبدونها أنها تقدر على سدّ حاجة أو دفع ضرر لظنٌّ باطل، إذ لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا. وثانيها: أن الرزق بكل أنواعه بيد الله تعالى، فعليهم أن يسألوا الله الذي بيده كل خير وبركة وخزائن النعم كلها. وثالثها: عليهم أن يعبدوا الله وحده ولا يعبدوا أحدًا سواه. ورابعًا: عليهم أن يشكروا الله تعالى على ما منّ به عليهم من النعم ويقدروها. خامسًا: أنهم سيُحضرون عند الله بعد البعث من الموت، فليعملوا أعمالاً ينالون بها رضا الله تعالى.

لقد تبين من ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يمنعهم عن عبادة الأوثان فحسب، بل ردّ على الفلسفة التي كانت وراء الوثنية حينذاك. فنبّههم أن هذه الأحجار التي هي جماد محض ولا حياة فيها لن تمنحهم شيئًا، إذا كانوا يريدون شيئًا فليسألوا الله الذي يملك القدرة كلها.

ثم لم يكتف إبراهيم عليه السلام بنصيحة قومه بقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾، بل قدّم أسوته الحسنة في هذا الصدد. فلما أمره الله تعالى أن يأخذ ابنه إسماعيل وأُمّه هاجر ويتركهما في واد غير ذي زرع لم يفكر من أين يأكلان وكيف يبيتان في تلك البرية، بل تركهما هناك، موقنًا بأن الله الذي يرزقهما في البيت سيرزقهما في البرية أيضًا.

أما قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ فقد حثّ به إبراهيمُ عليه السلام قومه على اغتنام الوسائل المتاحة لهم من قبل الله تعالى لسدّ حاجاتهم.

الحق أن الثروة نوعان: نوع يكسبه الإنسان بجهده، ونوع آخر وهبه الله تعالى بدون أي جهد منه. والثروة التي يكسبها الإنسان في الدنيا تتفاوت من شخص إلى آخر؛ فمثلاً إن الأرض أيضًا ثروة، ولكن ليس كل الناس من أصحاب الضيعات، بل بعضهم يملكون أراضي شاسعة وبعضهم يملكون القليل منها، وبعضهم لا يملكون منها شيئًا. ونفس الحال بالنسبة للتجارات والأعمال، فتجد تاجرًا يتجول في الشوارع حاملاً بضائعه على رأسه، بينما تجد شخصًا آخر يملك مصانع كبيرة. ونفس الحال بالنسبة للنقود، فهناك شخص مثلاً يملك خمس مئة روبية أو سبعا فقط، ويظن أنه من أهل الثراء، بينما تجد شخصًا آخر يملك الملايين ومع ذلك يريد المزيد جاهدًا. وهناك في أمريكا من الأثرياء الذين يبلغ دخلهم السنوي ملايين الدولارات، بينما تجد في البلاد الفقيرة أن شخصًا إذا ملك مئة أو مئتين روبية اعتبره الناس من الأغنياء. فالناس ليسوا سواسية فيما يتعلق بامتلاك الثروة الظاهرة، ذلك لأنها تُكتسب بالجهد والكفاح، ولذلك نجد بين الناس تفاوتًا كبيرًا بصددها، ويخضع هذا التفاوت حينًا للقانون القائل: مَن جَدَّ وجد، وحينًا يرجع إلى استثناء حيث يرث الابن من والديه ثروة كبيرة. بيد أن هناك ثروة من نوع آخر، ولكن المؤسف أن الإنسان لا يقدرها مع أنها ثروة غالية جدًا، بل هي الثروة الحقيقية في الواقع، وتُوزَّع من عند الله على الناس على السواء، ألا وهي ثروة الذاكرة والفكر والذكاء والعقل والتدبر، وينالها كل إنسان إلا المجانين والمعتوهين. وهذا الاستثناء شاذ جدًا، فكل إنسان يولد في الدنيا يعطى هذا الكنـــز العظيم من عند الله تعالى، إذ يوهب مع ولادته قوة الذاكرة والذكاء والفكر والتدبر، ولكنه إذا لم يُقدّر هذه القوى حق قدرها ضاعت كليًا أو جزئيًا. فمثلاً إذا لم يستعمل عيونه ضاع بصره، وإذا لم يمش شُلّت رجلاه، وإذا لم يعمل بيديه شُلّت يداه، وكذلك إذا لم يستعمل أعضاءه الأخرى ضاعت قواها الجسمانية. أما الذي يقدرها فتزداد قوة إلى قوة، فمثلاً إذا اجتهد الطالب وذاكرَ دروسه أصبحت ذاكرته قوية؛ وإذا لم يجتهد ولم يذاكر أصبح ضعيف الذاكرة. ومن حاول تفهُّم الأمور أصبح قوي الاستنباط، أما الذي لا يسعى لذلك يفقد قوة الاستنباط. والذين يفكرون فيما حولهم تزداد قوة

الفكر عندهم، أما الذين ليسوا معتادين على التفكير في الأشياء تضعف قوة الفكر عندهم. والذين يحاولون ضبط عواطفهم في حدودها يزدادون عقلاً، ومن لم يفعل أصبح ضعيف العقل. والذين يسعون دائمًا لاستعمال ما أعطاهم الله من نعم أو أسباب في محلها وبحدها المناسب تزداد عندهم ملَكة التدبير، أما الذين لا يقومون بهذا التخطيط فيفقدون هذه الموهبة. فكل الناس يُخلقون بهذه القوى سواسية تقريبًا، أما أن لا يُقدّرها أحد ويضيعها فهذا أمر آخر. وتتفاوت هذه الملكات من شخص لآخر وفقًا لمعاملة والديه معه؛ فمثلاً إذا لم يقم الوالدان برعاية الطفل في صغره، أو لم تأخذ أمه الحيطة المناسبة أيام الحمل، فقد تضعف هذه القوى فيه، ولكنه أمر استثنائي؛ أما لو نظرنا إلى الناس ككل، بغض النظر عن هذا الاستثناء، نجد ملايين الملايين يتمتعون بهذه الثروة الموهوبة من عند الله تعالى. ولكن ليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالثروة الظاهرة، ولو نظرنا للناس جميعًا من هذا المنظور لم نجد عدد الأثرياء في الدنيا كلها أكثر من مليونين ونصف المليون تقريبًا. فلو كان عدد أصحاب الثروة الظاهرة مليونين ونصف مليون، ولو كان عدد سكان العالم كلهم مئة وخمسين مليونًا، لكان بين كل عشرة ملايين شخص مئةُ ألف ثري. لقد بلغ عدد سكان العالم الآن مليارين ونصف مليار، وهذا يعني أنه يوجد ثري واحد بين كل ١٧٠٠ شخص تقريبًا. أما فيما يتعلق بثروة الذكاء والذاكرة والفكر والتدبر فتجد بين كل ١٧٠٠ شخص ١٦٨٠ شخصًا يملك هذه الثروة، وسيكون هناك عشرون شخصًا فقط هم محرومون منها، وإن كان من الممكن أن تكون هذه الثروة قد نقصت عند البعض نتيجة إهماله إياها، شأنه شأن السكّين التي تُلقى في المطر فيصيبها الصدأ، فإذا حملها الإنسان وصقلها عادت إلى حالتها الأصلية. ومن المستغرب أن الناس أكثرُ كفرانًا بهذه الثروة التي قد وهبها الله للجميع. فإذا سألت بعضهم: كم عندك من المال؟ قال: نعم، عندي كذا من الأرض والديار والبقر والخيل، ولكنه لن يذكر هذه الثروة التي هي أكبر الثروات.. أعني لن يذكر الهواء والماء مثلاً اللذين إذا حُرمهما مات. فمثلاً لو ضاعت بقره وخيله لم يمت، ولو ضاعت ثيابه لم يمت وتحمل قسوة الطقس، ولكن لو لم يجد الهواء لمات في دقائق،

ولو لم يجد الماء لمات في يوم أو بضعة أيام، ومع ذلك لا يذكر - كما قلتُ - الثروةَ التي هي أكبر الثروات، والتي يستحيل بقاؤه بدونها. ثم إنه لن يذكر لك العين والأنف والأذن واللسان عند هذا السؤال، بل يقول في الجواب مثلاً: عندي السكر بهذا المقدار، ولكنه لا يفكر أن السكر لن ينفعه إذا لم يكن عنده اللسان؛ إذ لولا قدرة اللسان على التذوق لاستوى عنده السكّر حلوًا كان أو غير حلو. أو يقول مثلاً: عندي زوجة جميلة وأبناء وُسَماء، ولكنه لا يتفكر في أنه لو لم تكن لديه عينان لما أدرك جمالهم. فثبت أن الإنسان لا يقدر كنوز الثروة الحقيقية، بل يجري دائمًا وراء الثروة الأدنى أو التي ينالها بواسطة أشياء أخرى. خذوا مثلاً الثوب، فإنه ذو قيمة لي إذا وجده جسمي ناعم الملمس، ولكن إذا لم يحس جسمي بنعومته فلا قيمة له بالنسبة إلي. ثم إنه ذو قيمة لأنه يعجب أحبابي ويسرّهم، ولكن إذا لم يكن عند أحبابي عيون أو إذا فقدتُ أنا الحس فماذا عسى أن ينفعني سواء أكان غالي الثمن أو رخيصًا جدًا. ونفس الحال بالنسبة للسان والمعدة، فإنهما يجعلان معًا الطعام ذا قيمة، ولكن إذا حُرم المرء اللسانَ مثلاً فلن يجد متعة في شرب الحليب وأكل الزبدة أو الأرز وغيرها من الأطعمة والأشربة. إذًا فثيابنا وطعامنا وشرابنا تصبح ذات قيمة لنا بواسطة هذه النعم الأخرى التي وهبنا الله إياها، إذ لو فقدتَ العين أو الحس المادي لم يعد عندك فرق بين الثوب الرديء والجميل مهما كان غالي الثمن.

باختصار إن ما أعطانا الله تعالى من هذه الثروة لغال جدًا، ولكن الأسف أن الناس لا ينتفعون منها حق الانتفاع. وهذا ما يلفت إليه إبراهيم عليه السلام أنظار قومه وينهاهم عن إهدار طاقاتهم، فينصحهم أن يُقدّروا نعم الله تعالى وينتفعوا بها ويسعوا لكسب الرزق بحسب القانون الإلهي؛ وعليه فإن لعبارة ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ نفس المدلول الذي هو لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾(النور:١٤). وكأن إبراهيم عليه السلام يقول لقومه: لِم تسجدون للأصنام؟ عليكم أن تنتفعوا بما آتاكم الله تعالى من قوى

وملكات من أيد وأرجل وما إلى ذلك، واسعوا لكسب الرزق بحسب هذا القانون الإلهي، إذ لن تنفعكم هذه الأفعال المثيرة للضحك.

وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٩

التفسير: لقد تبين من هذه الآية أنه كان بين إبراهيم ونوح أنبياء كثيرون. وقد أُوذي كل واحد منهم في عصره على أيدي الكافرين من قومه، ولكنهم تحملوا ببسالة كلَّ أذى، فكتب الله لهم النجاح في نهاية المطاف.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ فقد بيّن فيه أن الدعوة والتبليغ هي السنّة القديمة للرسل لا استخدام السيف، وقد اتبع إبراهيم أيضًا هذه السنة نفسها؛ كما قال الله تعالى لأهل عصره أيضًا ليس على رسولنا إلا تبليغ رسالتنا لا إكراه الناس على قبولها بحد السيف. والحق أن هذا هو ملخص القرآن كله.. أي ليس على أهل دين إلا إقناع الناس بالدليل، أما إكراههم بالقوة فلا يجوز لهم أبدًا. ولكن المؤسف أن الدنيا لم تعِ هذا الأمر حتى اليوم، مع أن الواقع أن كل إنسان يعتبر عقيدته حقًا بغض النظر عما إذا كانت حقًا في الواقع أم لا، شأن المسلم الذي يعتبر دينه حقًّا. لا شك أن المسيحية ديانة باطلة، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف ينظر معظم المسيحيين إلى المسيحية؟ لا جرم أنهم يعتبرونها دينًا حقًّا. كذلك لا غرو أن الهندوسية دين باطل، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف ينظر إليها أكثرية الهندوس؟ لا شك أنهم يعتبرونها دينًا حقًا. ولا شك أن الديانة اليهودية باطلة، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: ماذا يعتبرها معظم اليهود؟ والجواب أنهم يعتبرونها دينًا حقًّا. فإذا جاز قتل مسيحي بناءً على رأي مسلِم بأن دينه حق ودين المسيحي باطل، فلماذا لا يُمنح المسيحي حق قتل مسلم بناء على المنطق نفسه؟ ولماذا لا يجوز للهندوسي أن يُدخل الآخرين في ديانته

قهرًا أو يقتلهم؟ ولماذا لا يُمنح أتباع الديانة الكونفوشيوسية الموجودة في الصين حق إكراه الآخرين على اعتناقها؟ ولماذا لا يحق للمسيحيين في الفلبين التي يوجد فيها اليوم نحو عشرين ألف مسلم أن يقوموا بتنصيرهم جبرًا؟ ولماذا لا يحق لأمريكا أن تُدخل مواطنيها المسلمين في المسيحية بالقوة؟ ولماذا لا يحق لروسيا أن يجعلوا المسلمين كلهم بالإكراه مسيحيين أو اشتراكيين؟ إذا كان يحق للمسلمين إكراه الآخرين على قبول عقيدتهم فيجب أن يتمتع الآخرون أيضًا بهذا الحق عقلاً ومنطقًا. ولكن هل يمكن أن تنعم الدنيا بالسلام إذا مُنح هذا الحق للجميع؟! هل تستطيع أن تقول لابنك أو لزوجتك بأنه يحق للمسيحيين أن يُنصّروا المسلمين قهرًا، ويحق للمسلمين أن يُدخلوا المسيحيين في الإسلام قسرًا، ويحق للإيرانيين أن يدخلوا الأحناف كلهم في الشيعة بالقوة، ويحق للأحناف أن يُدخلوا الشيعة في أهل السنة قسرًا؟! فثبت أن هذا الأمر مناف للعقل والمنطق بحيث لن يقبله أي إنسان أبدًا.

كلما رفض أقوام الأنبياء هداية الله في الماضي قالوا لهم: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٩). أي إذا كنتم لا تريدون أن تهتدوا عن طيب نفس فلن نُكرهكم على الهدى قسرًا. ولكن المؤسف أنه يوجد في هذا العصر بين المسلمين من يُنكر هذا المبدأ. والحق أن الدنيا لو فهمتْ هذه القضية لانتهت عمليات الاضطهاد الديني والسياسي، ولم يفرض الناس عقيدتهم على الآخرين قسرًا ولم تفرض الدول نظامها السياسي على الدول الأخرى بالقوة.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

التفسير: لقد برهن الله تعالى هنا على صدق قوله من قبل: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، حيث تساءل: ألم ير هؤلاء كيف أقام تعالى على يد كل نبي جماعةً روحانية في الماضي، وعندما زال أثره أقام جماعة روحانية أخرى على يد نبي آخر، وهذا الأمر على الله تعالى سهلٌ يسير. فيمكنهم أن يسيروا في الأرض ويروا كيف بُعث في الدنيا نبي تلو نبي، وقامت جماعة بعد جماعة. كذلك سيُقيم الله الآن جماعة على يد محمد ﷺ والله تعالى قادر كلَّ القدرة على ذلك ولن تحول مكائدهم دون مشيئته هذه.

ويظن البعض أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يتعلق بالحياة الآخرة، والحق أن الحديث هنا ليس عن الآخرة بل عن هذه الدنيا. وحيث إن الموتى لا يعودون إلى الحياة في هذه الدنيا فالمراد من بدء الخلق هنا تمكين الأمم في الدنيا، والمراد من إعادة الخَلق النهوض بالأمم الغالبة ثانية بعد زوالها. بيد أن قولنا لا يعني إنكار أية حياة أخروية، بل نقصد بذلك أن هذه الآية: ﴿يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ تتحدث عن صعود الأمم وزوالها في الدنيا كما تدل على ذلك كلمات ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ وكلمات ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآَخِرَةَ﴾ حيث يدعو الله تعالى إلى التدبر في الكون.

كما أن الله تعالى قد تناول في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ موضوع بدء الكون الذي يسمى في المصطلح ethnology.. أي علم بداية خلق الكون.. والمعنى أنكم إذا سرتم في الأرض ورأيتم أحوال الناس عرفتم كيف كانت بداية العالم، أي إذا أردتم معرفة تاريخ العالم معرفة صحيحة فلن تستطيعوا ذلك بمعرفة أحوال بلد واحد، بل ستعرفونه برؤية أحوال شتى البلاد؛ إذ قامت في عصور مختلفة حضارات مختلفة، حيث ازدهرت الحضارة في الهند مرة، وفي إيران مرة أخرى، وفي روما تارة، وفي الجزيرة العربية تارة أخرى، وفي الشام حينًا، وفي مصر حينًا آخر. فلا بد لكم من السير في شتى بلاد العالم والنظر في آثار مختلف الشعوب، وعندها ستتوصلون إلى النتيجة الصحيحة في معرفة تاريخ العالم.

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾

التفسير: ليس المراد من هذه الآية أن الله تعالى يرحم أو يعذب بشكل عشوائي، إذ قد صرح الله تعالى في مواضع أخرى من القرآن الكريم أنه لا يشمل برحمته إلا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤدون الصلاة جماعةً ويعطون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، حيث قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٧١)، وقال تعالى أيضًا: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٥٧). لقد تبين من هنا أن الله تعالى لا يرحم بشكل عشوائي أو بدون حكمة، بل تشمل رحمته من يستحقها بعمله.

وقد بيّن الله تعالى سنّته عن العذاب أيضًا حيث صرح أنه لا يعذب أحدًا بطريقة عشوائية، بل يعذب من يستحق العذاب نتيجة كفره بالله ورسوله، حيث قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(النساء:١٧٤)، وأيضًا قال لرسوله ﷺ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ۝ إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾(الغاشية:٢٣-٢٥)، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(هود:١٠٧-١٠٩)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً﴾(الفرقان:٢٨-٢٩).

فما دام القرآن الكريم قد أخبر بوضوح عن الذين سيرحمهم الله تعالى، وصرح أيضًا عن الذين سيعذّبهم، فباطلٌ الزعم أنه تعالى يرحم أو يعذب بشكل عشوائي.

ثم إن عقاب أحد بشكل عشوائي ظلمٌ، وقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم صراحة أنه لا يظلم أحدًا حيث قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(الأنبياء:٤٨)، وقال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف:٩-١٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾(النساء:٤١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس:٤٥).

ثم إن هذا الزعم باطل حيث إن القرآن الكريم قد صرح أن كل إنسان سيُعامَل بحسب عمله، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾(النجم:٤٠-٤٢)، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨-٩)، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١٠-١١).. أي من طهَّر نفسه نال بغيته، ومن دسّها في الرغام خاب وخسر.

فلا يبقى بعد هذا التصريح مجال لأن يعذب الله تعالى أحدًا أو يرحمه بطريق عشوائي، وإنما يعني قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أنه يعامل الناس طبقًا لسلوكهم، فيرحم الذين يستحقون رحمته بالتفاني في محبته، ويعذّب الذين يدنّسون نفوسهم بالمعاصي.

أما السؤال: لماذا قال الله تعالى هنا: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، بدلاً من أن يقول إنه سيرحم من كان صالحًا ويعذب من كان سيئًا؟ فالجواب أن مشيئة الله ومقتضى العدل والإنصاف شيء واحد في الحقيقة. وبما أن الحقائق حاكمة على الإنسان فلا تُقدَّر أعماله بالنظر إلى نفسه، بل تُقدَّر وفقًا للحقائق. أما الله تعالى فهو منبع جميع الحقائق، فلا يقال أنه سيعمل طبقًا للحقائق، بل يقال إنه يعمل بحسب مشيئته كونَها منبع الحقائق كلها. إنه معدن الحسن، وإن كل حقيقة إنما هي انعكاس لمشيئته وصورة لإرادته وتجلٍّ لحسنه وجماله. فالقول بأن مشيئته تابعة للحقائق يماثل

القولَ أن الابن أبٌ لأبيه. وإنها لحكمة بالغة يمكن بها حل جميع الآيات الصعبة كهذه.

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٣

التفسير: لقد تحدى الله هنا الكافرين أنهم لن يحولوا دون انتصار محمد ﷺ وغلبته مهما اتخذوا من تدابير أرضية أو سماوية.. أي مهما عارضوا الإسلام بالتدابير المادية ومهما دعوا الله تعالى لينالوا مددًا من السماء، ذلك لأن أسباب الأرض ونصرة السماء كلتيهما تعملان على نصرته وتأييده ﷺ، فلن يدمّروا بمعارضتهم إياه ﷺ إلا أنفسهم، ولن يكون لهم ولي ولا نصير من دون الله.

لقد تحدى الله تعالى هنا الكافرين أن يتخذوا التدابير الأرضية والسماوية كلتيهما لأنه تعالى قد أمر المؤمنين أيضًا باتخاذ التدابير بنوعيها من أجل إشاعة الإسلام، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(الأنعام: ٣٦).. أي يا محمد، أو يا قارئ القرآن، إذا كان إعراض المعارضين شاقًّا عليك وتظن أن عداءهم قد تجاوز الحد حتى بات إصلاحهم محالاً، فيجب أن تنفض هذه الفكرة من ذهنك.. أي لا تيأس أبدًا من إصلاح المعارضين نتيجة إنكارهم ومعارضتهم، بل إن استطعتَ فعليك أن تشقّ نفقًا في الأرض أو تصعد بسلّم في السماء لتأتيهم بآية.

واعلم أن من أراد فتح قلعة للعدو، فإما أن ينسف جدرانها أو يدخل فيها صاعدًا على السلالم. وكلا الأمرين ممكن وليس محالاً، ولذلك يذكّر الله تعالى هنا المؤمنين بهاتين الطريقتين اللتين لا يزال الناس يتبعونهما منذ القديم في حروبهم المادية ضد العدو، ويخبرهم الله تعالى أنه قد جعل هاتين الطريقتين كلتيهما لفتحهم الروحاني

أيضًا. فإذا رأوا أن معارضة العدو قد بلغت ذروتها، فعليهم أن يتخذوا لهدايته كل التدابير المادية المتاحة من ناحية، ومن ناحية أخرى عليهم أن يسعوا للصعود إلى السماء بالسُّلم.. أي بسُلّم الدعاء كما هو مفهوم لكل عاقل متدبر.

إذًا، فالله تعالى يوصي المؤمنين هنا أن يسعوا لفتح القلاع الروحانية باتخاذ نفس الطرق التي تُفتح بها القلاع المادية في الدنيا، فإما أن ينسفوا جدرانها أو يقفزوا إلى داخلها بالسلالم، لأن هاتين هما الطريقتان للنجاح في الحرب الروحانية أيضًا.. أي عليهم أن يعملوا جاهدين لنصح القوم ووعظهم من ناحية، ومن ناحية أخرى عليهم أن يدعوا الله تعالى لهدايتهم. فمن كان فيه شيء من الجدّية ستأخذ عمارة كفره في الانهيار.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.. أي لا تنسَ أن الله تعالى قادر على هدايتهم، فلا داعي لليأس. ذلك أن الإنسان إنما ييأس إذا رأى خللاً وقصورًا في جهوده، ولكنه لو أيقن أن الله تعالى قادر على أن يهدي الجميع، وليس شخصًا واحدًا، فلا ييأس أبدًا. إذًا، فالله تعالى ينبّهنا أن لا ننسى أن قدرته لا تعرف الحدود، فهو قادر على أن يهدي العالم كله وليس شخصًا واحدًا فحسب.

فكما أن الله تعالى قد أوصى المؤمنين في الآية المذكورة أعلاه ببذل كل ما في وسعهم من تدبير حين تبلغ معارضة العدو ذروتها، وأن تكون تدابيرهم من نوعين: فعليهم بنسف قلوب الأعداء من خلال الدعوة المكثفة من جهة، ومن جهة أخرى عليهم أن يصعدوا إلى السماء بالسلالم.. أي أن يُكثروا من الدعاء ويستعينوا بالله تعالى، فقد تحدى الله تعالى الآن الكافرين في الآية قيد التفسير بأن يتبعوا الطريقتين لمعارضة المؤمنين أيضًا، وليعلموا أنهم لن ينجحوا أبدًا سواءً اتخذوا التدابير المادية أو لجأوا إلى الدعاء والبكاء أمام الله تعالى، بل إن الفشل مصيرهم في كل حال، لأنه تعالى قد قرر انتصار محمد ﷺ والذين معه وهزيمة أعدائهم الذين يلجأون إلى الجبر والإكراه، وليس في الدنيا قوة تقدر على تغيير هذا القرار الإلهي.